

اقرأ

أحمد السنّاوى

السننُ بالقبيل
قد بنا وعدينا

السُّبُورُ بِالْفَيْبِ
قَدِيمًا وَجَدِينَا

اهداءات ٢٠٠٢

المهندس/محمد إبراهيم شهابيك

الاسكندرية

أحمد السنناري

النبوء بالفيب

قد يما ومدينا

اقرا ٢٠١

دار المعارف بمصر

إقرأ ٢٠١ - سبتمبر سنة ١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ه شارع ماسبيرو - القاهرة

الفصل الأول

ما هو التنبؤ بالغيب

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ
فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ » .

والغيب هو ما لا نعتد في إدراكه على إحدى الحواس
فلا يدخل في دائرته استنباط النتائج من مقدماتها ومعرفة
المسببات من أسبابها بطريق الاستدلال، وقياس ما غاب بما حضر،
كعلمنا شفاء المريض قبل حصوله إذا وجدنا العلاج ناجعاً،
وكثرة ثمار الأرض إذا رأينا النبات نامياً، وسقوط أمة إذا
ألفينا أبناءها متفرقي القلوب منغمسين في اللهو والترف منصرفين
عن الجد والعمل . كل ذلك وما أشبهه خارج عن دائرة علم
الغيب أو التنبؤ بالغيب الذي هو موضوع هذا الكتيب .
والإنسان مولع منذ أن وجد على ظهر الأرض إلى اكتشاف
الغيب ومعرفة ما يخفيه المستقبل من أحداث . وقد ظهر من بني
البشر في كل عصر من العصور أناس ادعوا أن لهم القدرة على
التنبؤ بالغيب وقراءة المستقبل، وقد خلعت عليهم هذه القدرة

مهابة واحتراماً وتبجيلاً بين الناس ، بل لقد أذنتهم هذه المقدرة من مراتب الأنبياء وسلكتهم في عداد أولياء الله الصالحين .

ولم يقف هذا الميل أو الادعاء بالقدرة على كشف الغيب عند حد الأفراد بل تعداهم إلى الأمم والشعوب ؛ فقد بدأ برع الآشوريون في التنبؤ بالغيب وذلك عن طريق ملاحظة الكواكب والأجرام السماوية في مسالكها وقد مكنتهم سماؤهم الصافية من مراقبة حركاتها وقالوا إن لهذه الحركات دلالات على حظوظ الناس ومصائرهم . وقد أخذ الكلدانيون هذا العلم عنهم وواصلوا قراءة صفحة السماء ومشاهدة النجوم في تحركاتها وأقاموا على ذلك كله علماً يمكنهم من التنبؤ بحظوظ الناس ومعركة المصير الذي قلروهم . ولقد كان للمصريين القدماء نصيب وافر من هذا العلم ورثوه عن أسلافهم خلال ماضٍ سحيق يمتد إلى أجيال لا يكاد يحصيها العد .

أما الإغريق فكانوا لا يقدمون على أمر من الأمور إلا بعد التماس النصيحة من الآلهة واستشارة الكهنة الذين كانوا يدعون التنبؤ بالغيب . وكان علم الكهانة شائعاً عند العرب أيام الجاهلية إذ كانوا يطلقون لفظة كاهن على كل من ادعى علم الغيب ، أو تنبأ بشيء قبل وقوعه . وقد نبغ فيهم كثيرون من الكهان مثل

شق بن أنمار، وسطيح بن مازن، وطريفة الكاهنة، وزبراء الكاهنة وغيرهم .

وقد ورد في الكتاب المقدس الشيء الكثير من التنبؤات على ألسنة بعض الأنبياء من أمثال إرميا وحزقييل . وقام نفر من العلماء يدرسون هرم الجيزة الأكبر من حيث دلالاته على بعض التنبؤات ويؤكدون بالأدلة الحسائية الملموسة أن بعضها قد تحقق في العصر الحاضر .

وكان التنبؤ بالغيب من الأمور الشائعة في العصور الوسطى وظهر في تلك العصور عرافون كثيرون تنبأوا بأمور كثيرة تحقق الكثير منها ، ولعل أشهر هؤلاء العرافين هو نستراداموس Nostradamus أحد علماء العصور الوسطى ، وقد عاش في القرن السادس عشر وكانت له تنبؤات كثيرة تحقق منها الجزء الأكبر . وقد شابت تنبؤاته الشيء الكثير من الغموض بسبب التواء أسلوبها ، فقد كتب هذا العالم تنبؤاته في شكل أشعار رمزية لها دلالاتها الخاصة نذكر منها على سبيل المثال النبوءة التالية :

« سوف يغلب الأسد الصغير الأسد الكبير في ساحة التزال بعد مبارزة واحدة . سوف يطعن ناظره الموضوعين في قفص من ذهب ، وبعدها يموت الأسد الكبير ميتة شنيعة » .

كان نستراداموس هذا معاصراً للملك هنرى الثانى ملك فرنسا . وفى يولييه من عام ١٥٥٩ احتفل الملك هنرى بزواج أخته مرجريت من دوق ساقوى . وكان من بين برنامج الاحتفال إقامة مسابقة بالطعن بالرماح . وكان هنرى ماهراً فى اللعب بالرمح لذلك دعا أحد ضيوفه من الشبان وهو إيرل مونتجومرى من الحرس الاسكتلندى لمنازلته بالرماح . وقد اعتذر هذا الشاب عن هذا الشرف المحوط بالأخطار ولكن الملك أصر على ذلك . وفى خلال التزال اخترق رمح مونتجومرى خوذة خصمه للذهبية ودخل الرمح فى عين الملك اليمى . وقد مات الملك هنرى الثانى بعد ذلك ميتة شنيعة مؤلمة .

وتنبأ وليم ليللى William Lilly المنجم الإنجليزى فى عام ١٦٥١ بالطاعون الذى اجتاحت مدينة لندن عام ١٦٦٥ وبالحريق الذى دمرها عام ١٦٦٦ .

وكان تنبؤه من الدقة بحيث أنه تألفت بعد حريق لندن لجنة برلمانية لسؤال ليللى هذا عما إذا كان تنبؤه هذا مستمداً من معلومات أخرى غير ما أنبأته به النجوم والكواكب وذلك خشية أن يكون ذلك الحريق قد شب نتيجة مؤامرة من المؤامرات .

وبير Peare متنبئ إنجليزى آخر تنبأ فى عام ١٨٦٨ بأن

الملك جورج - وكان في ذلك الوقت في الثانية من عمره، وله من الإخوة ما يكبرونه سنًا - سوف يصبح ملكًا لإنجلترا تحت اسم جورج الخامس ، وقد تحققت هذه النبوءة .

وتنبأ أحد الإنجليز في عام ١٨٨٦ بأن عام ١٩١٧ سوف يكون على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لإسرائيل وبريطانيا . والمعروف أن اللورد اللنبي قد دخل فلسطين عام ١٩١٧ واستولى على القدس وأصبحت فلسطين تحت الانتداب البريطاني بعد أن ظلت تحت الحكم الإسلامي طوال ثلاثة عشر قرنًا من الزمان وقد مهد ذلك لظهور دولة إسرائيل الحديثة .

وقد ظهرت قبل عام ١٩١٤ نبوءات كثيرة عن الأحداث الجسام التي حلت بأوروبا. فيما بين عامي ١٩١٤ و ١٩٢٠ وهي الفترة التي نشبت فيها الحرب العالمية الأولى . فقد تنبأ العراف ويتزر Weitzer في أوائل القرن الحالى بأن السنوات الإحدى عشر من ١٩٠٩ إلى ١٩٢٠ سوف تكون ذات شأن خطير بالنسبة للقارة الأوروبية ، كما تنبأ معظم العرافين والمنجمين بدون استثناء بحرب ضروس تشنها ألمانيا خلال الأعوام من ١٩١٣ إلى ١٩١٦ . وفي عام ١٩٠٥ أى قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بعشر سنوات تقريباً نشرت مدام تيبس Thebes العافة الفرنسية المشهورة هذه

الكلمات في التقويم السنوي الفرنسي :

« إن مستقبل بلجيكا محزن مظلم . إن هذه الدولة الصغيرة توحى بالرفاهية والسلام ولكنى أكرر كلماتى السابقة ، أن هذه البلاد سوف تشعل النيران في أوروبا بأسرها » .

ونحن نذكر جميعاً كيف أغارت ألمانيا على بلجيكا في الحرب العالمية الأولى على الرغم من معاهدة عدم الاعتداء التي كانت معقودة بينها وبين تلك الدولة، الأمر الذى أدى إلى نعت هذه المعاهدة بأنها « قصاصة ورق » وكان ذلك هو السبب الذى دفع إنجلترا إلى دخول الحرب العالمية الأولى .

وذكرت مدام تيسس في طبعة سنة ١٩١٣ من ذلك التقويم ذاته ما يلى :

« إنى أرى بين أيدي كبار الإيطاليين دلائل تدل على حرب ضروس لم يحدث لها شبيه من قبل . إن ألمانيا تهدد أوروبا كلها بوجه عام وفرنسا بوجه خاص، ولكن الحرب إذا وقعت فسوف لا تحتفظ ألمانيا بعدها بمركزها الرفيع . وقد سبق أن أكدت مراراً أن أيام القيصر أصبحت مملوءات، وسوف تحدث بعده تغيرات هائلة في ألمانيا » .

وقد تنبأ بعض العرافين بموت اللورد كيتشنر غرقاً وهو في

السادسة والستين من عمره ، وأن مارك توين الروائي المشهور سوف يصبح ثرياً في أواخر أيامه أى بعد الثامنة والستين من عمره ، وهى كلها أمور تحققت عن آخرها فيما بعد .

ومجمل القول إن التنبؤات موجودة منذ أن وجد الإنسان .

ونحن اليوم نسخر من النبوءات التى يطالعنا بها من حين لآخر بعض العرافين والمنجمين وإن كان الكثيرون منا يعتقدون فيها وإن لم يفصحوا عن هذا الاعتقاد خوفاً من أن يرميهم الناس بالسذاجة أو التأخر العقلى . وليس هذا بجديد فقد وجد على الدوام فى كل عصر من العصور أناس سخروا من هذه النبوءات وآخرون اعتقدوا فيها . ولعل مرد هذا أنه لم يوجد قط عراف أو منجم صدق كل الصدق فيما تنبأ به . كما نجد إلى جانب ذلك عرافين تنبأوا بأشياء لا يميل الناس عادة إلى تصديقها كهؤلاء الذين يتنبأون من وقت لآخر بقرب فناء العالم فكان مصيرهم السخرية والمقت ، بل إن بعض العرافين قد تنبأوا فى العهد القديم بفناء أو زوال قارة الأطلانتس (القارة المفقودة) فكان مصيرهم القتل .

والإنسان بطبعه ميال إلى الشك بل إن الشك عنصر من عناصر حياته العقلية ، وما زاد من شكه فى هذه النبوءات ظهور

بعض العرافين تنبأوا بنبوءات كاذبة لم يتحقق منها شيء، على أن هذه النبوءات الكاذبة لا يجب أن تقلل من قيمة النبوءات على الإطلاق: أو تكون مطعناً في فن الكهانة؛ فما من فن إلا وكان حدس أهله عرضة للكذب . فإذا أخطأ الطبيب في حدسه فإن ذلك لا يطعن في فن الطب ولا يمكن كذلك أن نقول إن الملاحظة ليست فناً لمجرد أن الكثيرين من الممتازين من قباطنة السفن قد تحطمت سفنهم وابتلعهم المياه، وهل يفقد الفن العسكري قيمته لأن قائداً طائر الصيت قد حلت به الهزيمة وفقد جيشه وولى الأديار ؟

لقد ذكر العرافون كثيراً من النبوءات الصادقة، وتحفظ لنا كتب التاريخ الكثير من هذه النبوءات الصادقة التي تحققت عن آخرها وهذا يدعونا إلى التساؤل : من هو العراف ؟ هناك تعريف حديث يقول إن العراف هو شخص بعيد النظر الروحي فكما أن هناك في العالم الطبيعي قصر نظر وبعد نظر فكذلك هناك بعد نظر روحي .

ويمكن أن نعرف التنبؤ بالاختصار بأنه قوة تمكن صاحبها من رؤية الأشياء والحوادث غير المنظورة، سواء في الزمان أو في المكان . والنبوءة لا تنفد عادة قائلها بشيء من الأشياء، بل كثيراً

ما أدت بعض النبوءات إلى استشهاد من قالوا بها .
 ومما هو جدير بالذكر أن علماء البحوث الروحية، وكثيراً
 من علماء النفس يعتقدون اليوم في تبادل الشعور والخواطر مع
 الغير وهو ما يعرف عندهم باسم « تلباثى » Telepathy ويرون في
 التنبؤ بالحوادث المستقبلية حقيقة ثابتة لا يمكن إنكارها، وإن لم
 يجدوا لها تفسيراً تطمئن إليه النفس . وليس هذا مقصوراً على
 تبادل الشعور والخواطر والتنبؤ بالأحداث المستقبلية، بل هناك
 أيضاً حقائق علمية كثيرة لا نجد لها تفسيراً، أو أنها لم تفسر بعد
 التفسير الكافى المقنع .

إن كل ما نتمتع به اليوم من وسائل الراحة والرفاهية إنما هو
 ثمار آراء بدت في أول أمرها غريبة مستنكرة ، وكم سفهت
 واستهزئ بأصحابها ورموا بالجنون وفساد الرأى فيها يذهبون، ولكن ما
 لبث ما كان بالأمس مزاعم باطلة أن صار اليوم حقائق ثابتة
 ذات ثمار يانعة فيها منافع للناس .

نحن لا نعرف اليوم على سبيل المثال ما هى الكهرباء وأن
 كل ما نعرفه عنها هو آثارها التى نشاهدها ، وكذلك الحال
 بالنسبة للأشعة الكونية أو القوة التى تتحكم فى الذرة وغير ذلك
 من الظواهر الكونية . لقد مضى الوقت الذى كانت تعتبر فيه

هذه الأشياء التي لانجد لها تفسيراً من خوارق الطبيعة ، ولكننا لانميل اليوم إلى نعمها بأنها من خوارق الطبيعة ، ولكنها أشياء طبيعية لم تفسر بعد .

إن من مظاهر تفكيرنا تلك الظاهرة التي نطلق عليها لفظ « المحال » فنحن نعرف أنه منذ أكثر من قرن من الزمان كانت بعض الأشياء المألوفة لنا اليوم تعد من الأمور المستحيلة . ألم تكن مبادئ نظريات الطيران والغواصات والراديو والتليفزيون آراء غريبة طالما سخر الناس من القائلين بها ، محتجين إذ ذاك بأن تحقيق تلك الآراء مما يتنافى وسنن الكون وقوانينه الطبيعية .

فنحن نعرف أن المهندسين منذ أكثر من قرن من الزمان ، ذكروا أنه من المحال أن تجرى عربات حديدية ذات عجلات ملساء فوق خططين من الحديد وهي محملة بالائتقال دون أن تتزلز ، وأنه من المحال أن تجرى هذه العربات الحديدية بسرعة عشرين أو ثلاثين ميلا في الساعة دون أن تهشم أجسام البشر الذين يركبون هذه العربات أو تحدث لهم أشد أنواع الاضطرابات المخية والعصبية .

وكان القول بإمكان صعود الإنسان إلى القمر أو غيره من الأجرام السماوية في مستهل هذا القرن يعد ضرباً من الخيال

لا يمكن تحقيقه ولكننا اليوم أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من الصعود إلى هذه الأجرام السماوية بفضل هذه الصواريخ الجبارة التي هي من صنع الإنسان . إن عدد الأشياء التي نعتها الإنسان بأنها محالة تتفق وعدد المخترعات والمكتشفات الإنسانية .

إن عالماً ممتازاً مثل السير همفري دافى Humphry Davy قد سخر من الفكرة القائلة بأنه في الإمكان إنارة مدينة كبيرة مثل لندن بمصابيح الغاز ، وأن أكاديمية العلوم الملكية البريطانية قد ماجت بأصوات السخرية والاستنكار عند ما أعلن أمامها بنجامين فرانكلين رأيه عن مانعة الصواعق . ومجمل القول إن الاعتقاد في استحالة تحقيق الأشياء الصعبة أو غير المفهومة من العادات التي كونتها الإنسانية خلال تاريخها الطويل . لقد كان هناك من سوء الحظ نبوءات كثيرة ظهرت خلال التطور البشري لم يتحقق منها شيء ، وكان إلى جانبها نبوءات صادقة ولكنها كانت مع ذلك موضع الشك والسخرية شأنها في ذلك شأن النبوءات الكاذبة .

إن الشك عادة عقلية مفيدة ، ولكن كثيراً ما يساء استعماله . فيكون ضرره أكثر من نفعه . وإنه على الرغم من الشك والسخرية في محيط التكهن بالغيب فإن النبوءات ظاهرة قد تغلغت في

ضمير الإنسانية منذ آلاف من السنين ، ولم تقو أية قوة على محوها من ضمير الإنسانية . إن تعلق المرأة الحديثة — بل وكثير من الرجال — بالمنجمين والعرافين وضاربى الرمل والودع أمر يفوق الوصف . إن اعتقادنا فى النبوءات لا يمكن أن يموت شأنه فى ذلك شأن اعتقادنا فى كثير من الظواهر النفسية والأمور الروحية وإن عز علينا تفسيرها .

ومن أبسط الأمثلة التى يفسرون بها سبق النظر فى مجال الغيب، قولهم فلنتخيل قطار سكة حديد يسير حول جبل من الجبال ، ويقترب منه من الناحية الأخرى من الجبل قطار آخر يسير على نفس الخط الحديدى . وأن كلا من القطارين يسير بسرعة واحدة ولا يدرى أحدهما شيئاً عن الآخر . ولا يتلقى هذان القطاران أية إشارة للتوقف . والنتيجة الحتمية هى تصادم القطارين لأن كلا منهما جاهل بمصيره . وهناك رجل فى طائرة على ارتفاع بضعة آلاف من الأقدام فوق القطارين وهو مدرك تمام الإدراك لما سوف يحدث للقطارين فهذا واضح أمامه تمام الوضوح . ولو كان فى استطاعته الاتصال بالقطارين لأنبأهما بالكارثة التى تنتظرهما، اللهم إلا إذا اتخذ القطاران من الإجراءات السريعة المباشرة التى تحول دون وقوع هذه الكارثة . إن هذه القدرة

التنبؤية بسيطة غاية البساطة بالنسبة للطيار إنه في حالة تسمح له بأن يرى ويدرك ويتنبأ . كذلك العراف هو في حالة نفسية تسمح له بأن يرى أحداث المستقبل ويتنبأ بها .

والواقع أن التنبؤ بالغيب ظاهرة من ظواهر الحياة الإنسانية، حظها من البحث العلمي ضئيل بالمقارنة مع الظواهر الإنسانية الأخرى . لقد ضمت كثير من المؤلفات المنوعة شوارد مبعثرة من المعلومات المثيرة عن التنبؤات الصادقة والأخرى الكاذبة . وليس غرضنا من هذا البحث المقتضب أن نؤيد أو ننكر القدرة على التنبؤ بالغيب ، إنما غرضنا أن نجعل القارئ على دراية بموضوع من الموضوعات التي تثير اهتمامه وشغفه ثم نترك له بعد ذلك الحكم على الموضوع وفق ما يهتدى إليه عقله وإحساسه .

الفصل الثاني التنبؤات في العهد القديم

يصف أفلاطون التنبؤ بأنه « أسمى الفنون » وكان القدماء يمارسونه على نطاق واسع عن طريق أماكن الوحي المختلفة oracles فقد كان في العهد القديم مراكز خاصة للتنبؤ يذهب إليها الناس لاستشارة الآلهة فيما ينوون القيام به من أعمال ، فتحدث إليهم الآلهة على لسان الكهنة الموجودين في كل مركز من تلك المراكز وبأسلوب خاص يتميز به كل مركز منها .

وكان الرأي أن هذا النوع من التنبؤات يعد ضرباً من الهذيان، إذ كان يعترى الكهنة في تلك المراكز التنبؤية نوع من الهذيان، فتنتاليت ألسنتهم بأقوال تنبئ عما سيحدث في قابل الأيام. وقد فسر سقراط هذا الهذيان بأنه هبة خاصة من السماء ومنبع أعظم النعم بين البشر . فقد أسبغت كاهنات دلفي ودودونا — وكانا من أهم المراكز التنبؤية في بلاد اليونان القديمة — نعماً وفيرة على بلاد اليونان عند ما كان يعترى هؤلاء الكاهنات هذا الضرب من الهذيان في حين أنهن لم يقدمن إلا القليل من هذه النعم وهن في كامل وعين .

لقد كان هذا هو رأى أعظم حكماء اليونان فى هذه النبوءات الأمر الذى جعل جميع الإغريق يعتقدون فيها طوال مئات بل آلاف من السنين ، ويغمرون مذابح المعابد القائمة فى تلك المراكز التنبؤية بالهدايا والقرايين حتى إننا عند ما نقرأ اليوم عن وحي دلفى وما كان به من ساحات متسعة ونافورات ومعابد جميلة ، واستاده العظيم ومسرحه الفخم وتماثيله الرخامية العديدة والأخرى المصنوعة من البرنز بل ومن الذهب ، ورسومه التى أبدعها ريشة الرسام الإغريق الشهير بوليغنوتس Polygnotus لتضاهل أمام أعيننا جميع الكنوز المحفوظة الآن فى أكبر المتاحف العالمية .

لقد تجمع هذا الثراء العظيم فى بقعة واحدة من أرض اليونان لوجود كاهنة فى تلك البقعة تدعى « بيثيا » Pythia كانت تلوك بين أسنانها بعض أوراق شجر الفار وتستنشق الغازات التى كانت تنبعث من شق فى الصخر أسفل الكرسي^{١٢} الذى كانت تجلس عليه ، وتشرب من مياه نبع كاسوتس المقدس فتعترىها شبه غيبوبة وتهذى بكلام نبىء عما سيقع من أحداث فى مستقبل الأيام .

كان الناس يلجأون إلى كاهنة دلفى هذه ويلقون إليها

بأسئلتهم فتأتيهم الإجابة وكثيراً ما تكون مشوشة وغير مفهومة بالنسبة للسائل فيتصدى لتفسيرها حاشية بيثيا من الكهنة الملازمين لها ويصيغونها في أبيات مفهومة من الشعر المرسل . وإن ثراء وحى دلفى وشهرته الكبيرة التي طالت مع الزمن للدليل قوى على أن الناس في ذلك العهد القديم كانوا يعتقدون في صحة النبوءات التي تصدر عن هذا الوحي ، وأنها قد تحققت على مدى الأيام .

ولعل أقدم مراكز التنبؤ اليونانية هي وحي دودونا Dodona في جنوب مقدونيا . وكان هذا المركز يقوم وسط مرج من أشجار البلوط . وكان الاعتقاد أن حفيف هذه الأشجار يحمل في طياته إرادة الإله زيوس ومشيئته . وكان الكهنة بلورهم يقومون بتفسير هذه الأصوات التي تنبعث من أوراق هذه الأشجار ويعلمونها الإجابة المنشودة عن الأسئلة التي كانت تنال على كهنة هذا المركز من الوافدين إليهم من جميع أنحاء اليونان استنباء عما يخفيه عنهم القدر من أمور وأحداث .

والظاهر أن الآلهة كانت تتعشق المروج والأشجار وخاصة أشجار التوت والبلوط ونبات الطرفاء . وتذكر كتب التاريخ أن جان دارك تلك المسيحية العذراء كانت تستمع إلى هواتف عليا تأتي إليها من بين أشجار الغابة التي كانت ترعى فيها أغنامها

٢١

حتى أنها قد توسلت إلى جلاديهـا قبل إحراقها أن يذهبوا بها مرة أخرى إلى الغابة حتى تستمع إلى هذه الهوائف السماوية التي كانت تستمع إليها من قبل في غابات موطنها دومرى Domremy من أعمال فرنسا .

ومهما يكن من الأمر فإن وحى دودونا هذا كان قديم العهد فى الوقت الذى أخذ فيه هوميروس يتغنى بأشعاره . وقد تجمعت حول هذا الوحى الكثير من الأساطير والأخبار ، منها أن جماعة من أهل مقاطعة بيوشيا اليونانية جاءوا لاستشارة هذا الوحى فأشارت عليهم كاهنته مرتيل myrtile بأن الأجلر بهم أن يفعلوا أكثر الأشياء نكراً ، فلم يسعفهم تفكيرهم فى تلك اللحظة بأكثر من أن يلقوا هذه الكاهنة فى دست ملء بالماء المغلى وقالوا إنهم لم يجدوا أكثر من ذلك عملاً يتسم بالحدود ونكران الجميل . والواقع أن كثيراً من هؤلاء الكهنة والعرافين قد لاقوا مصيراً سيئاً أشبه بهذا المصير إما بسبب النبوءات التى قالوا بها ولم تلاق هوى فى نفوس سامعيها ، وإما بسبب عدم تحقق النبوءات التى قالوا بها .

وقد عثر الأثريون على بعض لوحات نقشت عليها بعض الأسئلة التى كان يوجهها الناس إلى وحى دودونا منها هذا السؤال :

« هل فقدت منى أعطيتى ووسادنى أم سرقها غريب ؟ » وسأل آخر : « هل أنا أبو هذا الجنين الذى سوف تضعه زوجتى نيلاً nyla قريباً ؟ » وغير ذلك من الأسئلة التى تدور على هذا المنوال. ويا حبذا لو كان فى مقدورنا أن نعرف ردود هذه الأسئلة ولكن المجموعات الكبيرة التى كانت تضم هذه النبوءات المختلفة والتى ظلت على قيد الوجود أكثر من ألفين من السنين قد اختفت نهائياً حوالى الوقت الذى استولى فيه الترك على مدينة القسطنطينية ولم يبق منها إلا بعض فقرات لا تغنى الباحث كثيراً فى هذا الموضوع .

ومجمل القول إن هذه النبوءات كانت من الأمور المعروفة فى العهد القديم . وكان يعتقد فيها كثير من الأمم المتحضرة وفى طليعتها اليونان التى كانت تضم أحكم حكماء العهد القديم من أمثال أرسطو وأفلاطون وسقراط . والمعروف أنه قد جاء على لسان كاهنة دلى أن سقراط هو أحكم حكماء البشرية . وكان لهذا القول أثر عميق فى نفس سقراط .

وبما يذكر أن هذا الفيلسوف عند ما صدر الحكم الأثيم بموته قال :

« إني لمغتبط بهذا الموت كل الاغتباط لأن الإله لم يعطنى

شارة عند ما برحت دارى ولا عند ما اعتليت هذه المنصة لأتولى الدفاع عن قضيتى ومن عادة الإله أن يعطى هذه الشارة كلما هددنى الشر .

وهناك كلمة مشهورة يغروها التاريخ إلى سقراط وهى :
« إن هناك شيئاً إلهياً ذلك هو ما أطيعه دوماً وهو على الرغم من أنه لا يدفعنى إلى عمل ما فإنه كثيراً ما يمنعنى عن الإقدام على عمل بالذات » . ويروى عن سقراط أيضاً أنه رأى ذات يوم صديقه « أقريطون » وقد عصب عينه برباط فقال له مستفسراً : « ماذا دهاك يا أقريطون ؟ فأجابه هذا قائلا :

« بينما كنت أتجول فى الريف إذا بغصن شجرة منحني قد انطلق وأصاب عيني » فقال سقراط : « هذا معقول لأنك آيت طاعتي عند ما أرسلت فى طلبك لتعود من حيث كنت ، استناداً إلى التذير الإلهى الذى اعتاد زجرى » .

على أن اليونانيين فى ذلك العهد البعيد كانوا نزاعين أيضاً إلى الشك فى كل شىء كما هو شأننا اليوم . فنحن اليوم نشك فى كل شىء ونسخر من كل شىء ونطلب تفسيراً معقولاً لكل شىء وكذلك فعل اليونانيون . على أن الكهنة فى مراكز هذه الهوائف الإلهية كانوا على جانب كبير من اللباقة والدهاء

وبعد النظر ولم تجارب متنوعة في شتى الأمور . وليس من شك مع هذا أن الكثير من هذه التنبؤات التي قالوا بها لم يتحقق ، كما أن كثيراً منها كان على جانب كبير من الغموض والإبهام .

على أن هذا كله لا يفسر لنا ذلك النظام التنبؤى الذى ظل قائماً طوال آلاف السنين في أكثر الأمم حضارة وتقدماً . لقد استشار الملوك والساسة هذه الهواتف في أعقد المشاكل في السياسة وشؤون الدولة . وقد قال شيشرون خطيب الرومان الأشهر — « إن مهبط الوحي في دلفي خصما عنيداً للتنبؤ في مختلف فنونه — » إن مهبط الوحي في دلفي ما كان يكثر زواره على هذا النحو ويشتهر إلى هذا الحد ويزدحم بالقرايين ، تقدمها الشعوب والملوك من كل صوب ، لو أن الناس في مختلف العصور لم يضعوا صدق نبوءاته موضع اختبار . والآن وقد تغير هذا منذ زمن طويل واضمحلت شهرته في الوقت الحاضر إذ لم يعد له من بعد الصيت ما كان له قديماً ، فإنه ما كان يصيب هذه الشهرة في ماضيه لو أنه كان غير خليق بالتقدير في أعلى مراتبه . ومن الممكن أن تكون الأبنحة الأرضية التي كانت تضيء نفس كاهنة « ييثيا » بالإلهام الإلهي قد اختفت بالتدريج على مر الزمان ، كما جفت فيما نعلم أنهار واختفت من الوجود . بينما غير بعض الأنهار الأخرى بالانحراف

والدوران مجراه » .

ولعل من أشهر نبوءات العالم القديم التي صدرت عن وحي
دلتى هي النبوءة المتصلة بالملك قارون Croesus ملك ليديا .
وكان هذا الملك من أغنى ملوك الأرض وكان يضرب بثرائه
الأمثال فيقال أغنى من قارون . وقد حفظت لنا كتب التاريخ
قصة هذه النبوءة التي قيلت لهذا الملك والرؤيا التي رآها وما كان
من أمر تحقق النبوءة والرؤيا معاً .

اعتلى قارون هذا عرش بلاد ليديا بعد وفاة والده وبدأ يحكم
وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره . وقد أغار قارون على جميع
الولايات اليونانية فى آسية الصغرى ، سواء ما كان منها تابعاً
للأيونيين أو للأبوليين ، وأخضعها جميعاً إلى سلطانه . ولم يكتف
قارون بإرغام اليونانيين فى آسية الصغرى على دفع الجزية له ، بل
صمم على بناء أسطول ضخم يهاجم به اليونانيين من سكان الجزر ،
ولكنه أفلح عن تلك الفكرة نزولاً على مشورة بعض الناصحين
واكتفى بأن أصبح صاحب الكلمة العليا على جميع الدويلات
التي كانت منتشرة فى آسية الصغرى .

وبعد أن حصل قارون على هذه الانتصارات كلها وبسط
من سلطان ليديا أصبحت ساردس Sardis عاصمة ليديا موثلاً

للمشاهير والعظماء، وأصحاب الفلسفة والمواهب الفنية في جميع البلاد . وكان من بين هؤلاء الذين وفدوا على ساردس صولون المشرع اليوناني المشهور . فقد سن هذا المشرع نزولا عند رغبة الأثينيين مجموعة من القوانين لتطبيقها في بلادهم ثم خرج بعد ذلك بجوب بلاد العالم في رحلة استغرقت عشر سنوات متصلة . وكان الغرض الظاهر من هذه الرحلة هو الدرس والإطلاع، أما هدفه الحقيقي فكان لتجنب ضرورة إلغاء أو إبطال هذه القوانين التي سنّها . فقد كان الأثينيون لا يستطيعون أنفسهم عمل ذلك؛ إذ آلوا على أنفسهم أن يحتفظوا بهذه الأنظمة القانونية التي وضعها صولون دون انتهاك طوال عشر سنوات .

وقد زار صولون عدة بلاد منها مصر ثم ذهب، إلى ساردس عاصمة الملك قارون وهناك قابله الملك بالترحاب ودعاه للإقامة في قصره . وبعد أيام من حضوره إلى القصر كلف قارون خدمه بأن يصطحبوا صولون ويطلعونه على خزائن ثروته ليرى ما بها من نفائس وتحف. ولما تم ذلك استدعاه قارون ووجه إليه الخطاب قائلا:

« ضيفي الأثيني ، إن صوت الشهرة يفصح عالياً عن حكمتك . ولقد سمعت الكثير عن أسفارك وأنتك قمت بدافع

حبك للفلسفة بزيارة جزء كبير من العالم، الأمر الذى دفعنى لأن أعرف منك أى رجل من بين الذين شاهدتهم هو أسعد الناس فى رأيك » .

كان قارون يتوقع أن يكون هو أسعد البشر ، الأمر الذى دفعه إلى سؤال صولون هذا السؤال . ولكن صولون برهن بإجابته أنه من أنصار الحق وأنه يمتق التملق والمداينة .

أجاب صول : « أظن أيها الملك أن تلوس الرجل الأثينى هو الشخص الذى يستحق أكثر من غيره أن نطلق عليه لفظ السعيد » . وقد عجب قارون من هذا القول فسأله : « وعلى أى شىء أقمت هذا الادعاء ؟ » فأجابه صولون : « لأن تلوس هذا كان يعيش فى ظل حكومة عادلة، وكان له كثير من الأبناء الفضلاء المحبوبين . وقد رأى تلوس أحفاده ولم يمت أحد منهم فى حياته . وبعد حياة موفقة ناجحة احتفلنا بجنائزه بكل مظاهر الشرف والتبجيل، إذ اشترك فى الدفاع عن وطنه ضد العدو، ووقع شهيداً فى ميدان الفخار والمجد . وقد دفنه الأثينيون حيث استشهد ، وأقاموا له احتفالاً فخماً » .

وظل صولون يحكى من أعجابه تلوس هذا الشىء الكثير

ولكن قارون قاطعه لأنه رغب متلهفاً أن يعرف الشخص الذى يمكن أن ننعتة بالسعيد بعد تلوس هذا، ولم يكن يشك قارون أن إجابة صولون سوف تنصب عليه هذه المرة .

أجابه صولون : « هما كليوبس Cleobis وبيتو Bito وهما أخوان من أهل أرجيف، كانت ظروف حياتهما ملائمة، وقد اشتهرا بقوتهما البدنية الأمر الذى توجا من أجله بأكاليل الغار لفوزهما فى المسابقات العامة . ومما يحكى عنهما أنه إبان الاحتفال الذى أقيم للإله جينو حيث كان المقروض أن تحمل أمهما إلى المعبد على عربة تجرها الثيران . ولسبب ما لم تتمكن الثيران من القيام بعملها ، فما كان من هذين الشابين إلا أن وضعوا نير العربة على أكتافهما، وسحبوا العربة وعابها أمهما حتى باب المعبد لمسافة طولها نحو ستة أميال . وقد قاما بذلك أمام عدد جم من النظارة، وما أن انتهيا من تلك المهمة حتى اختتما حياتهما بشكل فريد سعيد . فقد دلل الآلهة فى هذه الحادثة على أن الموت نعمة تفوق نعمة الحياة . لقد أفصح الحاضرون عن إعجابهم بعمل هذين الشابين وامتدحوا قوتهم البدنية وتمنت النساء أن يكن فى مركز أمهما التى اغتبطت لهذا العمل الذى صاحبه المحجد والفخار .

وقفت الأم أمام المذبح وابتهلت إلى الآلهة أن تخلع على

ولديها أحسن النعم التي يمكن أن يحصل عايتها إنسان . وما أن انتهت الأم من ابتهالاتها وانتهت الجموع من تقديم القرابين حتى انتحيا الشابان مكاناً منزلاً بالمعبد ليأخذاً قسطهما من الراحة بعد هذا العمل المجهد ، ولكنهما لم يقوما من مكانهما أبداً بعد ذلك إذ انتهت حياتهما عند هذا الحد . وكان من أهـر أهل أريجيف أن أقاموا تمثالين لكليوبس وبيتو واحتفظوا بهما في معبد دلفي على اعتبار أنهما شخصان يستحقان أعظم التقدير .

وتلك في رأى صولون وتقديره سعادة من الدرجة الثانية . ظل قارون غير راض عما سمعه من صولون فوجه الكلام إليه قائلاً : « أيها الأثيني ، إنك تنظر باحتقار إلى مظاهر ثرائي بحيث وضعتني في مرتبة أدنى من مرتبة أشخاص مغمورين لاشأن لهم » . فقال صولون : « لا تنعت أي شخص بأنه سعيد إلا بعد أن تعرف طبيعة مبعته . إن أسباب السعادة ليست في استطاع أي شخص أن يحصل عايتها جميعاً » وما إن سمع قارون هذه الكلمات من صولون حتى انصرف عنه عازفاً عن سماع رأيه فيه ؛ فخرج هذا المشرع الفيلسوف من قصر قارون آسفاً على مسلك هذا الملك ، الذي أبى أن يستمع لصوت الحكمة على لسان هذا المشرع العظيم .

وما إن رحل صولون حتى رأى قارون مناماً أزعجه أشد الإزعاج ، وكأنه عقاب حكمت به الممياء نظير عجرته وادعائه بأنه أسعد الناس جميعاً . رأى قارون في منامه رؤيا تهدده بكارثة حرمة فيما بعد من ولده . كان لقارون ولدان : أحدهما أبكم ، أما الآخر ويدعى أتيس Atys فكان يمتاز بتفوقه ونباهته . وكان مغزى الحلم الذى رآه قارون أن ولده أتيس سوف يموت بطعنة من سن رمح حديدى . هب قارون فرعاً من هذا الحلم وأخذ يقلب الأمر على جميع وجوهه . وكانت أول خطوة اتخذها أن قرر تزويج ابنة هذا ثم نحاه عن قيادة الجيوش الليدية التى قادها أتيس من قبل فى عدة حملات ، ثم نقل بعد ذلك جميع الرماح والنبال وغيرها من أدوات القتال من منازل الرجال إلى منازل النساء حتى لا تصيب واحدة منها ابنة ، إذ ربما تسقط عليه من مكانها المعلقة به .

وبينا كان قارون منهمكاً فى حفلات زفاف ابنة أتيس إذ جاء إلى ساردس أحد أفراد الأسرة المالكة فى فرجيا لاجئاً بعد أن ارتكب جريمة قتل . وقد حضر إلى قصر قارون طالباً من الملك حمايته . ولما سأله قارون فى أمره علم منه أنه يدعى أدرستوس وأنه قتل أخاه عن غير عمد فنفاه أبوه من البلاد . ولما كان قارون

على علاقات طيبة مع أسرة هذا اللاجئ، فقد فتح له أبواب قصره وبسط عليه حمايته .

وقد ظهر في حوالى ذلك الوقت في ميسيا Mysia بالقرب من أولبوس خنزير برى هائل الحجم كان يهبط من الجبال بين الحين والآخر، ويفتك بمن يصادفه من أهل تلك البلاد . وقد هاجمه الأهالى أكثر من مرة ولكنهم لم يستطيعوا التغلب عليه . ولما عز عليهم الأمر استنجدوا بالملك قارون، وطلبوا إليه أن يرسل إليهم ولده على رأس جماعة من شباب ليديا، ومعهم عدد من كلاب الصيد لتخليصهم من هذا الحيوان المفترس . ولكن قارون تذكر الحلم الذى رآه فأرسل إلى أهل ميسيا يعتبر عن إرسال ولده، بحجة أنه قد تزوج حديثاً ولا يسمح له وقته بمصاحبة هذه البعثة المطلوبة . ولما سمع أتيس بذلك أسرع إلى أبيه قارون ورجاه أن لا يحرمه من هذه الفرصة التى تتيح له أن يظهر شجاعته أمام زوجه، وأمام مواطنيه بوجه عام . فأخبره أبوه خبر الحلم الذى رآه فأقنعه أتيس أنه لو كان قد رأى فى المنام أنه سيموت بوخزة قرن أو نحو ذلك لكان له العذر فى منعه من مصاحبة هذه البعثة . وأخيراً سمح له أبوه بالذهاب إلى ميسيا مع أفراد البعثة للقضاء على هذا الخنزير البرى المتوحش .

وكان من أمر قارون أن أحضر هذا اللاجىء الفريجي وطلب منه نظير إينوائه وبسط حمايته عليه أن يكون حارساً أميناً لابنه طوال مدة هذه البعثة . ولقد قبل ذلك هذا اللاجىء عن طيب خاطر .

خرجت البعثة إلى ميسيا وكانت تضم نخبة من شباب ليديا الماهرين فى الصيد والقنص ومعهم عدد من كلاب انصيد المدربة . وقد وصلوا إلى جوار أولبوس وبحثوا عن الخنزير حتى وجدوه فضيقوا عليه الحصار وهاجموه برماحهم . وحدث أن سدد ادراستوس رمحه نحو الخنزير ولكنه أخطأه وأصاب سن الرمح أتيس فقتله . وبذلك تحققت رؤيا قارون . وما إن علم قارون بمقتل ولده حتى أخذ يندب سوء حظه . وقد تقدم إليه ادراستوس طالباً منه أن يأمر بقتله لما اقترفته يداه . ولكن قارون أجابه قائلاً : « إنك لست مذنباً فقد ارتكبت ذلك عن غير عمد ، إن الإله الذى حذرنى من هذا الشر هو الذى قام به » .

وقام قارون بعد ذلك بدفن ولده باحتفال مهيب . وفى المساء تسلل ادراستوس الذى قتل أخاه ثم صديقه إلى قبر أتيس واخذ ينعيه وينعت نفسه بأنه أتعس البشر طراً ثم طعن نفسه بمنجنجر فخر صريعاً فوق قبر أتيس .

أمضى قارون الستين اللتين أعقبنا وفاة ابنه في حزن عميق .
ولم يكن يشغل باله في تلك الفترة إلا ازدياد عظمة الإمبراطورية
الفارسية وعلى رأسها الملك كايروس بن قمبيز . أخذ قارون
يتساءل هل يقدم على عمل يوقف به توسع هذه الإمبراطورية
قبل أن تصبح خطراً يهدد دولته ، أم يتقرب ما سوف تجيء به
الأيام . وأخيراً صمم على استشارة مراكز الوحي في اليونان
والأخرى الموجودة في ليبيا . وأرسل لهذا الغرض رسلاً إلى دلفي
ودودونا وبرانشيدا وتروفونيوس وأمفياروس وهي أشهر مراكز
الوحي في اليونان القديمة ، كما أرسل رسله إلى مركز الوحي الشهير
في صحراء ليبيا وهو المعروف باسم زيوس آمون .

وكان غرض قارون من ذلك أن يختبر صدق هذه الهوائف
السماوية ثم يحصل منها بعد ذلك على رأى قاطع بخصوص حملة
يوجهها لمقاتلة الملك كايروس والقضاء على دولته . وزود قارون
رسله بتعليماته وهي أن يسألوا هذه المراكز في اليوم المائة من
رحيلهم من ساردس عما يفعله الملك قارون في ذلك اليوم ويدونوا
ذلك كتابة ثم يخبرونه به بعد عودتهم إلى ساردس . ولم يحفظ
لنا التاريخ الإجابات التي ذكرتها هذه المراكز التنبؤية ؛ وكل ما
يعرف أن رسل قارون ما إن دخلوا معبد دلفي في اليوم المحدد

وتقدموا بسؤالهم لكاهنته بشيا حتى أجابت :

إننى أحصى الرمال وأكيل البحار
وأسمع الأبكم والأصم صوتي
والآن يتصاعد إلى أنفى رائحة
سلحفاة وشاة فى قدر يغليان
حيث نحاس من أسفل ومن أعلا نحاس

ولما عاد الرسل إلى ساردس وأخبروا الملك بالإجابات التى سمعوها من هذه المراكز المختلفة وجد أنها غير مرضية ، ولكن ما أن سمع إجابة وحى دلفى حتى صاح بأن هذا هو ما كان يفعله فى ذلك اليوم المحدد : لقد عمد قارون فى ذلك اليوم إلى صنع شيء لا يخطر على بال أحد فقد أخذ سلحفاة وشاة وقطعهما لإرباء ثم وضعهما فى قدر من النحاس له غطاء من النحاس وأشعل النيران تحت القدر فأخذ يغلى بما فيه . وعزم قارون بعد ذلك على أن يستحوذ على عطف ورضاء إله دلفى عن طريق تقديم القرابين العظيمة . وتذكر كتب التاريخ أنه قدم من جميع الحيوانات الصالحة للقرابين ثلاثة آلاف رأس من كل منها ، كما أنه أحرق عدداً كبيراً من غالى الثياب والرياش المحلاة

٣٥

باللألىء ونقيس الأحجار الكريمة على أمل أن ذلك كله سوف يكسبه عطف ومناصرة إله دلتى كما طلب من اللبدين أن يقدم كل منهم ما يملك قرباناً لهذا الإله .

وبعد أن انتهى قارون من تقديم هذه القرابين حتى أذاب قلداً كبيراً من الذهب وصنع منه قواعد للتماثيل طول الواحدة منها ستة أشبار وعرضها ثلاثة أشبار ، وارتفاعها شبراً ، وبلغ عددها ١١٧ قاعدة . وكان أربع من هذه القواعد من الذهب الخالص أما الباقية فكانت من خليط الذهب والفضة ، كما صنع تماثلاً لأسد من الذهب الخالص حمله على هذه القواعد .

ولما أتم قارون صنع هذه الأشياء كلها أرسلها إلى دلتى ومعها أكثر من ذلك ، قلداً كبيران إحداهما من الذهب والأخرى من الفضة ، وضعت الذهبية منها إلى يمين الداخل إلى المعبد والفضية إلى يساره . وأرسل قارون أكثر من ذلك ، أربع قوارير فضية لحفظ الخمور واثنين لحفظ ماء الطهور إحداهما من الذهب والأخرى من الفضة وغير ذلك من نقيس التحف والهدايا .

وطلب قارون من الرسل الذين حماوا هذه الهدايا إلى معبد دلتى أن يسألوا وحى دلتى هذا السؤال : « هل يخرج قارون لملاقاة الفرع ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فهل سيتحالف معه غيره

في سبيل تحقيق هذا الغرض؟» وكانت الإجابة التي تلقاها كما يلي : «إذا خرج قارون لمحاربة الفرس فإنه سيقضى على إمبراطورية عظيمة » . كما تضمنت الإجابة توصية بالتحالف مع أقوى الدويلات اليونانية .

ولما سمع قارون هذه الإجابة فرح غاية الفرح على أمل أنه هو الذي سيقهر كايروس ويقضى على دولته . لقد فسر قارون هذه النبوءة وفق هواه فعمل على إيجاد تحالف دفاعي بينه وبين كثير من الدويلات اليونانية، وكذلك بينه وبين المصريين ، ثم خرج بعد ذلك لمحاربة فارس . وقد حذر بعض عقلاء القوم من مغبة هذه الحملة لأنه لو انتصر على الفرس فسوف لا يجنى شيئاً من هذا الانتصار أما إذا لحقت به الهزيمة فسوف يفقد كل شيء، ولكن قارون اختار الحرب وكانت النتيجة أن لحقت به هزيمة منكرة . فقد اجتاحت الفرس مدينة ساردس عاصمة ليديا بعد أربعة عشر يوماً من بدء القتال ووقع قارون نفسه في الأسر .

وقد أمر كايروس ملك الفرس بأن يحرق قارون على كومة هائلة من الحطب . وبينما هو واقف على هذه الكومة في انتظار مصيره المحزن وإذا به يخرج من بين ضلوعه أنات عميقة ويهتف

ثلاث مرات قائلا : صولون ، صولون ، صولون . فقد تذكر
لتنو قول صولون بأنه لا يصبح أن ننت أي شخص بأنه سعيد
إلا بعد أن نعرف طبيعة ميته . وقد أحب كايروس الملك المنتصر
أن يعرف ما يقصده قارون من مناجاة هذا الشخص الذي
يسمى صولون، ولكن قارون ظل صامتا فترة من الوقت لا يجير
جواباً ولا أرغم على الكلام ذكر قصته مع صولون المشرع الأثيني
وأن المال في واقع الأمر لا يمكنه بحال أن يسعد صاحبه .

وبينما كان قارون يقص على السامعين قصته مع صولون إذا
بالنيران قد اشتعلت في كومة الحطب التي سيحرق عايبها قارون
هو واثني عشر شاباً من أبناء ليديا . ويقال إن كايروس بعد أن
سمع هذه القصة من قارون رأى أنه من الجهل والغباء أن يقدم
للنيران رجالاً لم يكن أقل منه جاهاً وثراء، وخشى أن يحل به هو
نفسه في يوم من الأيام ما حل بقارون، إذ ما من شيء يملكه
الإنسان له صفة اللوام والبقاء ولذلك أمر بأن تطفأ النيران بأسرع
ما يكون وأن يتزل قارون من فوق منصة الإحراق هو ومن معه؛
ولكن الجند لم يستطيعوا التحكم في النيران التي كان قد استمر
أوارها في تلك اللحظة .

وتذكر كتب التاريخ أن قارون لما علم أن الملك كايروس

قد غير من رأيه وأن كل فرد من الحاضرين يحاول إطفاء النيران دون جلوى ابتهل إلى الإله أبولو أن يهب لنجدته وتخليصه من هذا البلاء المحيط به إذا كان قد تقبل منه أية هدية أو قرباناً من القرابين التي قدمها إليه . وكان اللمع يهطل من عيني قارون وهو يتوسل إلى هذا الإله . وفجأة تغيم السماء بعد أن كانت صافية وتهب العاصفة وتهمر الأمطار فتخمد كومة الحطب التي كان سيحرق فوقها قارون .

ولما شاهد كايروس ذلك أدرك أن قارون من الرجال الورعين المتعلقين بالآلهة لذلك أدناه منه وسأله : « أخبرني يا قارون من الذي حرصك على الخروج ضدى وبهذا أصبحت عدواً لى بدل أن تكون صديقاً ؟ » فأجابه قارون : « أيها الملك إننى صنعت ذلك لحظى التعس ولطية نفسك المتناهية، فقد دفعنى إلى ذلك الإله الذى استشرته، فليس من أحد هو من البلاءه وعدم الحس والتقدير بحيث يؤثر الحرب على السلام، ففى وقت السلم يدفن الأبناء آباءهم أما فى الحرب فيدفن الآباء أبنائهم » .

ومهما يكن من الأمر فإن قارون قد علم أنه بخروجه لقتال الفرس فإن دولة كبرى سوف تنهار — كما وعدت بذلك النبوءة— وإن كان الذى حدث هو انهيار إمبراطوريته .

هذا ولم تكن النبوءات محصورة في اليونان وحدها بل كانت معروفة أيضاً في مصر، بل هي في مصر أقدم تاريخاً منها في اليونان. فوحي آمون رع في مصر يرجع تاريخه إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد وكان به طيف يمثل الإله يتحدث إلى الناس، ويقبل منهم الأسئلة ويجيب عنها، ويقال إن الإسكندر الأكبر عند ما زار معبد آمون رع في صحراء مصر خرج إليه هذا الطيف وخاطبه قائلاً: «إنني أعلتك بأنك سوف تملك البلاد جميعاً وتخضع لك جميع الأديان».

واشتهر أيضاً في البلاد المصرية وحي هليوبوليس، وكان الناس يفلدون إليه في كل بلد لاستشارة كهنته في أهم أمورهم. والمعروف أن الإمبراطور الروماني تراجان أرسل قبل أن يشترك في حرب برثيا وفداً إلى هذا المركز للتنبؤ لاستشارة كهنته في مصير هذه الحرب. وتذكر التواريخ أن الكهنة أجابوا إجابة صامتة، وذلك بأن أرسلوا إلى تراجان غصن كرم مكسور دون أى تعليق أو شرح. وقد قتل هذا الإمبراطور في هذه الحرب وحمل جثمانه إلى روما. وعند ذلك تذكر الناس نبوءة وحي هليوبوليس وقالوا له كان تراجان يعتقد حقاً في هذه النبوءات لما أقدم على هذه الحرب فبعد أن وصله هذا الغصن المكسور.

ونظائر أن أخبار النبوءات الغامضة هي التي وصلت إلينا دون النبوءات الواضحة . والواقع أنه كانت هناك نبوءات صادقة كثيرة قدمت لأفراد كثيرين ولكن لم يتم أحد بتسجيل هذه النبوءات الشخصية بعكس الحال مع النبوءات السياسية الكبرى التي كان يسعى إليها الملوك والحكام .

ومهما يكن من الأمر فقد ظلت هذه النبوءات قائمة أجيالا طويلة وكانت معروفة أيضاً في العهد المسيحي حتى أن ترتوليان أحد آباء الكنيسة في القرن الثالث الميلادي قد أعلن أن العالم لا يزال مزدهراً بالنبوءات . وكانت الحياة الروائية مليئة بهذه النبوءات وخاصة ما كان منها متصلاً بحياة القياصرة وأعمالهم وهذا هو السبب في اهتمام بعض المؤرخين بهذه التنبؤات .

فقد تنبأ العراف سبورينا Spurinna بما حدث ليوليوس قيصر في اليوم الخامس عشر من شهر مارس . وحذره من خطر عظيم لا يمكن رده سوف يقع في ذلك اليوم . وقد رأت كالبرينا زوجة يوليوس قيصر في منامها حلمًا تشاء مت منه غاية التشاؤم؛ إذ رأت أن برج مترلها قد تهدم وأن زوجها قد طعن وهو بين ذراعيها . وكان يوليوس قيصر يشعر بالمرض فأثر المكوث في منزله في ذلك اليوم المشؤم يوم ١٥ مارس سنة ٤٤

٤١

قبل الميلاد . غير أن صديقه بروتس ذكر له أن جمعاً غفيراً من أعضاء مجلس الشيوخ ينتظره بالمجلس فلا يصبح له أن يجيب أمالم .

وفي أثناء الطريق إلى مجلس الشيوخ قابل قيصر العراف سبورينا وكان الوقت إذ ذاك حوالى الحادية عشرة صباحاً . فما إن رآه يوليوس قيصر حتى ابتسم له قائلاً : « ها قد حل اليوم الخامس عشر من شهر مارس ولم تحدث أية كارثة » فأجابه سبورينا « نعم قيصر ولكن لم يمض بعد هذا اليوم » .

وكلنا نعرف أنه لم تغرب شمس ذلك اليوم إلا وكان يوليوس قيصر قد انتقل إلى العالم الآخر إثر طعنة نجلاء تلقاها من يد صديقه بروتس . وقال الناس في ذلك الوقت لو كان يوليوس قيصر يعتقد حقاً في هذه النبوءات لما اغتيل في يوم ١٥ مارس .

وكان من الطبيعي أن تعنى القياصرة بعد ذلك بهذه النبوءات فقد لجأوا إلى مراكز الوحي المختلفة يستنبئونها الغيب في أوقات الحرب وفي أوقات السلم وفي كل أمر ذى شأن .

وكان بعض مشاهير الرومان لهم القعدة على التنبؤ بالغيب نذكر منهم فيجولوس Figulus أحد أعضاء مجلس الشيوخ

بروما . فقد كان هذا الرجل يعد في نظر معاصريه أعلم الناس بالتنجيم . واهمه البعض أنه من المشتغلين بالفنون الخفية . ويزكرون أنه شاهد ذات يوم اكتافئوس وقد جاء إلى مجلس الشيوخ متأخراً بعض الوقت فلما سأله في ذلك علم منه أنه ولد له ولد في ذلك اليوم فصاح فيجولوس قائلاً : « لقد قدمت إلينا سيداً حاكماً » . ولقد اكتأب اكتافئوس عند سماعه هذا لأن الرومانيين في تلك الأيام كانوا لا يزالون يرون أنهم أمة ديمقراطية لذلك فكر اكتافئوس أن يقضى على هذا الوليد ولكن فيجولوس نصحه أن لا يقدم على ذلك لأنه من المحال أن يغير اكتافئوس من المصير المحتوم .

ولقد لعبت النبوءات دوراً هاماً في حياة أوغسطس ولد اكتافئوس ، ففي الوقت الذي كان فيه اكتافئوس على رأس جيش في تراقيا لم يفته أن يستشير الوحي هناك عن مصير ابنه . وبينما هوفى المعبد يصب الخمر على المذبح وإذا بالسنة النيران تغمر المعبد وترتفع إلى عنان السماء . وأخبر كهنة المعبد اكتافئوس أن حادثاً مثل هذا قد وقع مرة واحدة وذلك عند ما كان الإسكندر الأكبر يقدم القرابين عند المذبح ،

ويقال إن تيوجينس المنجم الروماني المشهور قد رغب في

٤٣

قراءة طالع الطفل أوغسطس . فما إن ذكر الطفل تاريخ مولده حتى هب تيوجينس من فوق مقعده وركع عند قدى هذا الطفل . وكان أوغسطس من ناحيته يعتقد في صدق طالعهِ ولذلك ما أن بلغ التاسعة عشرة من عمره حتى غادر المدرسة واعتلى عرش الكبير إمبراطورية معروفة في ذلك الوقت .

ولقد حذر وحي دلفي الإمبراطور نيرون من الرقم ٧٣ . ولقد فسر هذا نيرون بأنه سوف يحكم حتى يبلغ الثالثة والسبعين من عمره ولكن الواقع أن هذه الإشارة كانت تشير إلى حكم خلفه الإمبراطور جلبا الذي حكم عدة أشهر وكان وقتذاك في الثالثة والسبعين من عمره .

وقد دمر نيرون وحي دلفي إبان ثورة من ثوراته الجنونية ، لأنه رأى في وجوده إنتفاص لسلطانه ، وقد خشى أن يظن الناس أن أبولو إله دلفي أعظم من نيرون .

الفصل الثالث التنبؤ بالغيب عند العرب

كانت الكهانة شائعة عند العرب أيام الجاهلية : فكان هناك الكهان والعرافون ، وإن كانوا أحياناً يفرقون بين الكهانة والعرافة ؛ فيقولون إن الكهانة مختصة بالأمور المستقبلية ، أما العرافة فخاصة بالأمور الماضية . ومهما يكن من الأمر فإن المراد بهما هو التنبؤ واستطلاع الغيب . وكان العرب يعتقدون أن للكهان القدرة على كل شيء ، فكانوا يستشيرونه في كل أمر جليل من أمورهم ويتقاضون إليه في خصوماتهم ، ويستطبونه في أمراضهم ويستفتونه في ما أشكل عليهم ؛ ويطلبون منه تفسير رؤاهم ويستنبئون عنه مستقبلهم . ولهذا كله كانت منزلة الكاهن عندهم في أعلا المراتب ، والكهان عندهم هم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين . وكان هذا هو شأن الكهان جميعاً في سائر الأمم القديمة . والرأى أن الكهانة ليست أصيلة عند العرب بل جاءتهم من بعض الأمم المجاورة وأغلب الظن أن الكلدانيين هم الذين نقلوا الكهانة إلى بلاد العرب مع ما نقلوه إليها من علم التنجيم . وما يؤيد ذلك أن الكاهن يسمى في العربية أيضاً « حازى » أو

« حزاء » وهو لفظ كلداني معناه الناظر أو الرائي أو البصير ، وهو يدل عندهم على الحكيم والنبي . وقد اقتبس العرب بعد ذلك لفظ الكاهن من اليهود الذين نزحوا إليهم على أثر ما أصابهم من النكبات في أورشليم وخصوصاً بعد أن دمرها طيطس عام ٧٠ للميلاد .

والكهانة بوجه عام تطلق على أنواع مختلفة من التنبؤ بالغيب ، لأنها تشمل الناظرين في الأجسام الشفافة من المرايا وطساس الماء وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالخصى والحجوب من الحنطة والنوى ، وأهل الزجر والفأل ، والمنبئين عن الغيب باستنباء الطيور والسباع ، وأهل الرياضة السحرية وأصحاب الفراسة ونحوهم .

وقد جعل العرب الكهانة على أصناف : منها ما يتلقونه من الجن ، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذي يليه ، إلى أن يتلقاه من يليه في أذن الكاهن فيزيد فيه . فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرست السماء من الشياطين وأرسلت عليهم الشهب ، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب . وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله : « إلا من

خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » .

والصنف الثاني ما يخبر به الجنى من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد . والثالث ما يستند إلى ظن وتخمين وحس . والصنف الرابع ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك .

ويقولون إن الصنف الأول قد بطل بمجىء النبي صلى الله عليه وسلم وحرمة الكهان بعد بعثة النبي من كشف الغيب . وقد جاء في بعض الروايات أن لا كهانة بعد النبوة، فلا يجوز تصديق الكهنة والإصغاء إليهم، لأن هذا من دلالات الكفر . وجاء في الحديث : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » . ويقولون عن الصنف الثاني إنه لا يبعد وجوده .

وقد أفاضوا الكلام عن الصنف الرابع الذى يستند إلى التجربة والعادة وقالوا إن هذا نظير الأسباب التى يستدل بها الطبيب والفلاح والطبايعى على أمور غيبية بما تقتضيه تلك الأدلة مثال الطبيب إذا رأى الجرح مستديراً حكم بأنه عسر البرء ، وإذا رآه مستطيلاً حكم بأنه أسرع برءاً . وكذلك ما علم به الربان من أمور تحدث فى البحر والرياح بعلامات تدل على ذلك من

٤٧

طلوع كوكب أو غروبه أو علامات أخرى فيقول يقع مطر
أو يحدث ريح كذا، أو يضطرب البحر في مكان كذا ووقت كذا.
وكذلك الفلاح يرى علامات فيقول هذه الشجرة يصيبها كذا
وتيس في وقت كذا، وهذه الشجرة لا تحمل العام وهذه تحمل.
وذهبوا أكثر من ذلك فقالوا إن هذا أمر لا يختص بالإنسان
بل كثير من الحيوان يعرف أوقات المطر والصحو والبرد وغيره كما
جاء في كتب الحيوان. والفرس الرديء الخلق إذا رأى اللجام من
بعيد نفر وجزع وعض من يريد أن يلجمه علماً منه بما يكون
بعد اللجام. وهذه الثملة إذا خزنت الحب في بيوتها كسرتها
نصفين علماً منها بأنه ينبت إذا كان صحيحاً وأنه إذا انكسر
لا ينبت. والقبط يدفن أذاه ويغطيه بالتراب علماً منه بأن الفأر
تهرب من رائحة فيفوته الصيد، ويشمه أولاً فأن وجد رائحته شديدة
غطاه بحيث يوارى الرائحة والجرم، وإلا اكتفى بإيسر التغطية.
وهذا الأسد إذا مشى في لين سحب ذنبه على آثار رجله ليغطيه
علماً منه بأن المار يرى مواطىء رجله ويديه.

وجاء في كتب التاريخ أن الكهان العرب قد عرفوا نبأ سيل
العرم قبل وقوعه ونصّبوا أولى الأمر في البلاد بالعمل على انتقاء
شره. وكان هذا في عهد عمرو بن عامر الذي تولى رئاسة ولد

قحطان . إذا كان أخوه « عمران » كاهناً عقيماً وزوجته « ظريفة الخير » كاهنة من حمير ، فرأى عمران أن قومه سوف يمزقون كل ممزق فأناً أخاه بما رأى في كهنته ، وكان هذا أول نبأ عرف عن سبل العرم . وبينما كانت ظريفة الخير نائمة ذات يوم إذ رأت سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ، ثم هوت إلى الأرض فلم تصب شيئاً إلا أحرقت . فقزعت ظريفة لذلك وأدركها رعب شديد وأتت زوجها الملك وهي تقول إن ما رأيته قد أذهب عنها النوم إذ رأت غيماً أبرد وأرعد طويلاً ، ثم أصعق فما وقع على شيء إلا احترق فما بعد هذا إلا الغرق .

فلما رأوا ما داخلها من الروح سكتوا من جأشها حتى ثابت إلى نفسها . ثم دخل زوجها إحدى حدائقه ومعه جاريتان ، فبلغها ذلك ، فأمرت وصيفاً لها أن يتبعها ، وانطلقت إلى زوجها حيث كان ، فاعترضتها ثلاث مناجذ — وهي دواب باليمن — مستصبات على أرجلهن ، واضععات أيديهن على أعينهن ، فأخفت ظريفة عينها وجلست ، وطلبت إلى وصيفها أن يبلغها متى انصرفت هذه المناجذ ، فلما أبلغها ذلك ، انطلقت مسرعة إلى زوجها ، فاعترضها خليج الحديفة ووثبت منه سلحفاة وانقلبت على ظهرها ، وحاولت أن تعتلد على غير جدوى ، فاستعانت

بذنبها وحثت التراب على بطنها وجنبها وقذفت بولا . فهوت الكاهنة إلى الأرض حتى إذا عادت السلحفاة إلى الماء ، انطلقت بطريقة إلى زوجها في الحديقة ، وكان النهار قد انتصف واشتد حره فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح . فلما أقبلت على زوجها ، ألفت الجاريتين على الفراش فاستحيا زوجها حين رآها ، وأمر الجاريتين بمغادرة الفراش لتأخذ زوجه مكانهما فكهننت هذه وقالت : « والنور والظلماء والأرض والسماء ، إن الشجر لتالف ، وليعودن نلاء كما كان في الدهر السالف » فسألها عن أنبأها بذلك ، فقالت : « أخبرتنى المناجذ ، بسنين شداد يقطع فيها الولد والوالد » . قال ما تقولين ؟ قالت : « أقول قول الندمان لحفا ، قد رأيت سلحفا ، تجرف التراب جرفاً ، وتقذف بالبول قذفا ، فدخلت الحديقة ، فإذا الشجر يتكفأ » قال عمرو وما ترين ذلك ؟ قالت : « هي داهية ركيمة ، ومصيبة عظيمة ، بأمور جسيمة » قال وما هي وبلك ؟ قالت « أجل أن لي فيها الويل ، وما لك فيها من نيل ، فلي ولك الويل ، مما يجيء به السيل » فألقى نفسه عن الفراش وقال لها : ما هذا يا ظريفة ؟ قالت : « هو خطب جليل ، وحزن طويل ، وخلف قليل » قال عمرو وما علاقة ما تذكرين ؟ قالت : « اذهب إلى السد فإذا رأيت جرذا

(فأراً) يكثر يديه في السد الحفر ، ويقلب برجليه من الجبل
الصخر ، فاعلم أن الحفر حُفِرَ ، وأن قد وقع بنا الأمر .
قال وما هذا الأمر الذي يقع ؟ قالت : « وعد من الله نزل ،
وباطل بطل ، ونكال بنا نكل ، فبغيرك يا عمرو فليكن الشكل »
فانطلق عمرو إلى السد يحرسه ، فإذا بفأر يقلب برجليه صخرة
لا يقوى على قابها خمسون رجلاً . . ! فكر إلى زوجته ، وأنبأها
الخبر وهو يقول :

أبصرت أمراً عادني منه ألم	وهاج لي من هوله برح السقم
من جرد كفحل ختريز الأجم	أوتيس صرم من أفاريق الغم
يسحب صخر من جلاميد العرم	له مخاليب وأنياب قضم
ما فاته سحبا من الصخر قضم	كأنما يرعى خضيرا من ملم

فقالت ظريفة إن من شواهد ما أنبأتك به ، أن تأخذ
مجلسك بين الجنتين ثم تأمر بزجاجة توضع بين يديك فإن الريح
تملأها من تراب البطحاء ، مع أن الجنان مظلة ، لا تدخلها
شمس ولا ريح . . . ! فلما فعل امتلأت الزجاجة بعد قليل
من تراب البطحاء ، فانطلق إليها وأنبأها بما جرى ، وسألها : متى
ترين هلاك السد ؟ . . قالت : في سبع سنين . قال ففي أيها

يكون ! ... قالت لا يعلم هذا غير الله ، ولو أوتي أحد علم ذلك لكنته ، ولا تأتي عليك ليلة طوال السنين السبع ، إلا ظننت أن السدييد في غدها أو في أثناها . ورأى عمرو في منامه سيل العرم ، وقيل له إن آية ذلك أن ترى الحصباء قد ظهرت في سعف النخل ، فلما استيقظ تحقق من صدق ما رأى ، فأدرك أن البلاء واقع والحراب نازل . فكتم الأمر واعتزم التخلص من ممتلكاته ، وانتوى الهجرة مع ولده من أرض سبأ ، ولكنه خشى أن يفتضح أمره ، فيستنكر الناس تصرفه ، فاحتال اللأمر حتى أهانه ابنه وضربه ابنه على مرأى من ضيوف له ، تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما ... فصاح : واذلاه ... ! وأقسم ألا يقيم بهذا البلد وباع كل ما يملك ، ثم استفتى أخاه الكاهن في البلد الذي يرحل إليه فقال الكاهن : « من كان منكم ذا هم بعيد ، وحمل شديد ومزاد جديد ، فليلحق بقصر عمان المشيد » فكان الذي نزلوه أزد عمان فقال : « ومن كان منكم ذا حاجة ووطر ، وسياسة ونظر ، وصبر على أزمات الدهر ، فليلحق ببطن مر » فكان الذين سكنوه خزاعة ... إلى آخر ما جاء في هذه القصة . وتبين لنا القصة السابقة أسلوب الكهان في تكهناتهم فقد كان لكهان العرب لغة خاصة بهم تمتاز بتسجيع خاص يعرف

بسجج الكهان مع تعقيد وغموض ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في مثله : هذا من سجج الكهان فجعل السجج مختصاً بهم بمقتضى الإضافة . ولعل الكهان كانوا يلجأون إلى هذا الأسلوب من القول تمويها على الناس بعبارات تحتل أكثر من وجه كما يفعل العرافون في الوقت الحاضر .

وقد اشتهر في بلاد العرب أيام الجاهلية كثير من الكهان والكواهن وأقدمهم شقوبن أنمار ، وسطيح بن مازن ، وحكاياتهما أشبه بالخرافات منها بالحقائق . ويقال إن شقا هذا كان نصف إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة . وأن سطيحاً كان لحماً يطوى كما يطوى الثوب ، لا عظم فيه إلا الجمجمة ووجهه في صدره ولم يكن له رأس ولا عنق ، وكان في عصره من أشهر الكهان . وقد ولد في يوم واحد هو وسطيح وكانا من المعمرين . ومن الكهان الذين نبغوا إبان النهضة العربية التي سبقت الإسلام : خنافر بن التوأم الحميري وسواد بن قارب الدوسي . وكان من الكهان من ينسب إلى بلده أو قبيلته كقولهم كاهن قريش وكاهن اليمن وكاهن حضرموت وغيرهم .

أما الكواهن من النساء فإنهن عديدات منهن طريفة كاهنة اليمن وهي أقدمهن وزبراء الكاهنة وغيرهما .

٥٣

وكان هناك أيضاً إلى جانب الكهنة فئة أخرى من المنبئين
بالغيب وهم العرافون ، وقد كان منهم كثيرون في بلاد العرب
وذكرهم الشعراء في أشعارهم فقد قال الشاعر :
فقلت لعراف الإمامة داوئي فإنك إن داويتني لطيب

وقال الآخر :

جعلت لعراف الإمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني
فقالا : شفاك الله والله مالنا بما حملت منك الضلوع يدان

وعراف الإمامة هو رباح بن عجله ، وعراف نجد هو الأبلق
الأسدي . وليس هناك اتفاق بصدد التفرقة بين الكهانة والعرافة .
ولعل الذي عليه رأى الأغلبية هو أن العرافة لا تشمل الكشف
عن الغيب متى اتصل بالماضي أو الحاضر وإنما تقتصر على ما
ارتبط بالمستقبل وحده .

ومهما يكن من الأمر فإن العرب تسمى الكاهن عرافاً أيضاً
وبعضهم يطلق هذا اللفظ على الطيب . والعراف عند العرب
هو الذي يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات يستدل بها على
نتائجها ، أي هي الاستدلال ببعض الحوادث الحالية على الحوادث

الآتية بالمناسبة أو بالمشابهة الخفية التي تكون بينهما، أو الاختلاط أو الارتباط على أن يكونا معلولين لأمر واحد، أو يكون ما في الحال علة لما في المستقبل كالشيء يسرق فيعرف المظنون به السرقة ، وتتهم المرأة بالريية فيعرف من صاحبها، ونحو ذلك من الأمور .

ومن أمثلة العرافة أنه كان في زمن هارون الرشيد عراف أعمى ، يستدل عن المسئول عنه بكلام يصدر عن أحد الحاضرين عقب السؤال ، فسرق من خزانة الخليفة أشياء ، فاستدعاه هذا وأمر الحاضرين بأن يلتزموا الصمت عقب السؤال ، فأمر العراف يده على البساط فوجد نوى تمر ، فقال إن المسئول عنه در وياقوت وزمرد في سفظ . . . فسأل الرشيد عن مكانه فقال العراف إنه في بر ، فوجدوه كذلك . . . ! ! وسئل العراف في ذلك ، فقال وجدت نوى تمر ، وطلع النخلة أبيض وهو كالدر ، ثم يكون بساً وهو أخضر ، وهو لون الزمرد ، ثم يكون رطباً وهو أحمر ، وهو لون الياقوت ! ! فلما سألتهم عن مكان المسروق ، سمعت صوت دلو فعرفت أنه في بر . فاستحسن الرشيد فراسته وأعطاه مالا جزيلا .

ويدخل في باب التنبؤ بالغيب الفأل والطيرة والعيافة وكلها

أشياء ترى إلى الكشف عن حوادث المستقبل استناداً على كلام يسمع من الغير اتفاقاً ، أو استناداً على أصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها ، أو استناداً إلى مصحف يفتح فيكشف عن معنى عفوياً ، وقد جرى هذا في غير المصحف من كتب الشيوخ كديوان الحافظ والمثنوى ونحوهما .

والفأل أمر يدعو إلى الإقدام بعكس الطيرة فإنها تدعو إلى التشاؤم والإحجام . أما العياقة فهي زجر الطيور أى التحدث بالغيب عند سnoch طائر أو حيوان . وكان العرب يزجرون الطير أو الحيوان أى يصيحون به أو يرمونه بحجر فإن ولاهم فى طيره ميامنه سموه سانشاً وتفاءلوا به ، وإن ولاهم مياسره سموه بارحاً وتشاءموا منه فالسانح مرجو عند العرب والبارح هو المخوف ، وإن كان بعضهم يتطير بالسانح ويتيامن بالبارح ، فأهل نجد يتيامنون بالسانح وأهل التهامم بالضد من ذلك ..

وكان العرب فى الجاهلية يكثرون من الزجر ثم شاع الفأل بعد ذلك فى الإسلام ، وقد نهى النبى عن الطيرة فقال : « لا طيرة ولا هامة ولا سحر » وكان عليه الصلاة والسلام يحب الفأل . قيل إنه حين هاجر إلى المدينة ودنا منها سمع منادياً يقول : يا سالم فقال لأصحابه سلمنا ، ولما دخلها سمع آخر يقول يا غانم فقال غنمنا .

وقد عرف عن عمر بن الخطاب أنه كان من الذين يجولون من الألفاظ التي يقال عفواً موضع تفاؤل أو تشاؤم ، فمن ذلك أن رسولا من ميدان نهاوند أقبل عليه ذات يوم فسأله عن اسمه ، فقال : قريب فسأله عن أبيه فقال : ظفر فقال عمر متفائلا ظفر قريب إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

وللعرب قصص وأخبار طويلة في الفأل والطيرة والعيافة ؛ من ذلك ما حكاه المدائني قال : خرج رجل من هلب — ولم عيافة — في حاجة له ومعه سقاء من لبن ، فسار صدر يومه ثم عطش فأناخ بعيره ليشرّب ، فإذا الغراب ينعب فأثار راحلته ومضى ، فلما أجهده العطش أناخ ليشرّب فنعب الغراب فأثار راحلته ، ثم في الثالثة نعب الغراب وتمرغ بالتراب ؛ ففصر الرجل السقاء بسيفه فإذا فيه أسود ضخّم ، ثم مضى فإذا غراب على سدة فصاح به فوق على سلمة فصاح به فوق على شجرة فأنهى إليه فإذا تحت الشجرة كثر فلما رجع إلى أبيه قال له : ما صنعت ؟ قال سرت صدر يوي ثم أنخت لأشرب فإذا الغراب ينعب قال : أثره وإلا لست بأبني قال : أثره ، ثم أنخته لأشرب فإذا الغراب ينعب ، قال : أثره وإلا فلست بأبني قال : أثره ، ثم أنخته لأشرب فنعب الغراب وتمرغ في التراب قال : اضرب

السقاء وإلا فلست بابني قال : فعلت فإذا أسود ضحك ، قال :
ثم مه ؟ قال : ثم رأيت غراباً واقفاً على سدة ، قال : أطره وإلا
فلست بابني قال : أطرته ثم وقع على سلمة . قال أطره وإلا
فلست بابني ، قال : أطرته فوقع على شجرة قال : أخبرني بما
وجدت فأخبره . . .

وذكر التنوخي في كتابه نشوار المحاضرة عن أبي الحسين
قال : اجترت أنا وأبو طاهر بن نصر القاضي بشارع القاضي ،
نقصد دار قاضي القضاة أبي الحسين في علة التي مات فيها
لنعوده فإذا بثلاثة من الأعراب ركبان فشال أحدهم رأسه وقد
سمع غراباً ينعب على حائط دار أبي الحسين قاضي القضاة فقال
للنفسين اللذين خلفه : إن هذا الغراب ليخبرني بموت صاحب
الدار : . فقال له الآخر : أجل إنه يموت بعد ثلاثة أيام . فقال
الآخر : نعم ويدفن في داره . فقلت : أسمعت ما قالوا ؟ قال :
نعم هؤلاء أجهل قوم . وافترقنا فلما كان في ليلة اليوم الرابع
سحراً ارتفعت الصبيحة بموت قاضي القضاة أبي الحسين ، فذكرت
قول الأعرابي وعجبت وحضرنا جنازته ودفن في داره . فقلت لأبي
طاهر رأيت أعجب من وقوع مقالة الأعرابي بعينها إيش هذا ؟ .
فقال : لا والله ما أدري ولكن تعال حتى نسأل عنهم ونقصدهم

ونستخبر منهم من أين لهم ذلك . فقال : كنا أياماً نسأل عنهم وعن حلهم من البلد فلانخبر ، إلى أن أخبرونا أنهم نزول حلة من بنى أسد بباب حرب فقصدها هم ، فقلنا : هل فيكم من يبصر الزجر ؟ فقالوا : أجل ثلاثة إخوة في آخر الحى يعرفون بيني القائف ، ودلونا على أخبيتهم فجئنا فصادفنا أصحابنا بأعيانهم ولم يعرفونا فأخبرناهم بما سمعناه منهم وسألناهم عنه فقالوا : إنا وغيرنا نعرف نعيماً للغراب بعينه لا ينبغي في موضع إلا مات ساكنه مجرباً على قديم السنين في البوادي لا يخطئون ، ورأينا ذلك الغراب نعب ذلك النعب الذى نعرفه . فقلنا للآخر : كيف قلت إنه يموت بعد ثلاثة أيام ؟ قال : كان ينعب ثلاثاً متتابعات ثم يسكت ثم ينعب قلنا على هذا فحكمت بذلك . فقلت للآخر وكيف قلت إنه يدفن في داره ؟ قال : رأيت الغراب يحفر الحائط بمنقاره ورجليه ويحشو على نفسه التراب فقلت إنه في داره . وذكر عن كثير عزة أنه خرج يريد مصر ، وكانت عزة بها ، فلقبه أعرابي من نهد فقال : أين تريد ؟ قال : أريد عزة بمصر ، قال : ما رأيت في وجهك قال : رأيت غراباً ساقطاً فوق بانه يتتف ريشه فقال : ماتت عزة ! فأنتهى ومضى فوافى مصر والناس منصرفون من جنازتها فأنشأ يقول :

فأما غراب فاغتراب وغربة وبان فين من حبيب تعاشره
وقد اشتهر من بين العرب كثيرون في الزجر والعيافة كعراف
الجمامة والأبلى الأسدى والأجلح وعروة بن يزيد وغيرهم ممن لا
يحصى عدداً .

وكان هناك من بين العرب من أنكر الزجر ونحوه وذم من
اغتربه واعتملى أمره عليه منهم ضابى بن الحرث وقد قال فى ذلك
وما عجلات الطير تلدى من الفتى نجاحاً ولا عن ريشن يخيب
مدورب أمور لا تضيرك ضيرة وللقب من مخشاشن وجيب
ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب
ومنهم النابغة وقد روى أنه خرج هو وزيد بن سيار يريدان
الغزو فرأى زيد جرادة فقال : حرب ذات ألوان فرجع ومضى
النابغة . ولا رجع غائماً قال :

يلاحظ طيرة أبداً زياد لتخبره وما فيها خبير
أقام كأن لقمان بن عاد أشار له بحكمته مشير
تعلم أنه لا طير إلا على متطير وهو الثبور
بلى شىء يوافق بعض شىء أحاسينا وباطله كثير
وقال النبي صلى الله عليه وسلم وقد مثل عنها : « ذاك شىء »

يحمده أحدكم فلا يصدقه . وقال شراح الحديث إنه ليس في
سنوح الطير وبروحها ما يقتضى ما اعتقدوه وإنما هو تكلف
بتعاطى مالا أصل له ، إذ لا نطق للطير ولا تمييز فيستدل بفعله
على مضمون معنى فيه ، وطلب العلم من غير مظانة جهل من فاعله .
ولأنه على الرغم من ذلك فقد بقيت من هذا بقايا في كثير
من المسلمين . ومن العيب أن بعض القبائل العربية في الجاهلية
كانت لا تزوج بناتها إلا لمن اتصف بصفات خاصة منها معرفته
للزجر والعيافة حيث إن هذه المعرفة عندهم كانت من الصفات العلية .
وكانت عند العرب غير ما ذكرنا وسائل أخرى يتوسلون بها
إلى معرفة الغيب كالطرق بالخصى والحجوب من الخنطة والنوى
والخط في الرمال . فكان الكاهن إذا سئل عن حادثة أخرج
حصيات قد أعدها عنده فيطرق بعضها ببعض فيأوح له حيثئذ
ما يعلم به جواب السؤال . أما الخط في الرمال فكان الكاهن يأمر
غلامه أن يخط خطوطاً على رمل أو تراب ويكون ذلك منه في
خفة وعجلة لا يدركها العدو إلا حصاء ، ثم يأمره فيمحوها خطين
خطين وهو يقول « إبنى عيان . أسرعا البيان » فإن كان آخر ما
يبقى منها خطين فهو آية النجاح وإن كان قد بقي خط واحد فهو
علامة الخيبة والحرم .

الفصل الرابع المنجمون والتنبؤ بالغيب

لم يكن للعرب في الجاهلية دراية بصناعة التنجيم، وظلوا على جهلهم بهذا العلم حتى كادت الدولة الأموية أن تنقرض . ونستدل على ذلك أننا لا نجد في أشعار الجاهلية وأخبارها شيئاً يدل على علمهم بهذه الصناعة على وفرة ما جاء في هذه الأشعار والأخبار، من اشتغالهم بالكهانة والقيافة والزجر والطيرة وغير ذلك من أنواع التفاؤل والتشاؤم . على أن العرب الذين استقروا خارج الجزيرة العربية بعد أواسط القرن الأول قد قالوا بتأثير الكواكب في السعد والنحس على الأخلاق .

ومهما يكن من الأمر فقد شاعت النجامة منذ الماضي السحيق عند قدماء الشرقيين . ويعتبر الكلدان أساتذة العالم في علم النجوم فهم الذين وضعوا أسسه وأقاموا بنيانه، وقد ساعدتهم على ذلك صفاء سمائهم وجفاف هوائهم فرصدوا الكواكب وعينوا أماكنها ورسموا الأبراج ومنازل القمر والشمس وحسبوا الكسوف والخسوف بآلات فلكية منذ أكثر من أربعين قرناً خلت . وقد أخذ عنهم هذا العلم اليونانيون والآشوريون والمصريون

وغيرهم من أهل الحضارات القديمة . وفي القرن الخامس قبل الميلاد أغار الفرس على الكلدان وفتحوا بلادهم واستبدلوا بهم فنقل ذلك على الكلدان فهاجر كثيرون منهم إلى البلاد المجاورة لهم وخاصة بلاد العرب التي كانت ملاذاً للمهاجرين من العراق ومصر والشام وذلك لامتناعها على الجيوش المغيرة بسبب فيافيها القفر .

وكان في جملة المهاجرين إليها جماعة من الكهان وأصحاب النجوم فتعلم العرب منهم أحكام النجوم وأخذوا عنهم أسماءها كما عرفوا منهم مواقع الأبراج ومناطقها ومنازل القمر والشمس . وعلى الحملة فإن العرب مدينون بعلم النجوم للكلدان وهم يسمونهم الصابئة .

ولم يكن للتنجيم شأن عند العرب إلا منذ قيام الدولة العباسية ، ولعل أول من اهتم بالتنجيم والنجوم هو أبو جعفر المنصور الذي أمر بترجمة الكثير من كتب هذا الفن . وقد سار خلفاؤه على منواله وأصبح للتنجيم شأن كبير عندهم بحيث كان المنجمون فئة من موظفي الدولة كما كان الأطباء والكتاب والحساب ولهم الرواتب والأرزاق . وكان الخلفاء يستشيرون المنجمين في كثير من الأمور الإدارية والسياسية ، فكانوا إذا خطر لهم أمر ذو شأن

وخافوا مغبته استشاروا المنجمين، فينظرون في حال الفلك
واقترانات الكواكب ؛ ثم يشيرون بموافقة هذا العمل أو علمه .
ويعرف التنجيم عند العرب بأسماء مختلفة ، فهم يسمونه أحياناً
علم أو صناعة النجوم ، وأحياناً علم أو صناعة الأحكام ، وسماء
البعض علم النجامة . ويطلق على المشتغل بعلم النجوم أو التنجيم
الإحكامي ، أو المنجم وإن كان اللفظ الأخير يطلق أيضاً على
الفلكي .

وقد انعقد إجماع المتكلمين والفقهاء والفلاسفة على إنكار
التنجيم . وشذ عن هؤلاء قلة من أمثال الكندي وإخوان الصفاء
وفخر الدين الرازي .

ومن أقوال المنكرين لهذا العلم أنه ليس في معرفة الكائنات
قبل وقوعها صلاح لإنسان من الناس ، لأن في ذلك تنغيصاً للعيش
واستجلاباً للهم واستشعاراً للخوف والحزن والمصائب قبل حلولها .
ويقول المؤيدون إن الإنسان إذا علم ما يكون من حادث في
المستقبل أو كائن بعد ، أمكنه أن يدفع عن نفسه بعضها لا بأن
يمنع ويدفع كونها ، ولكن يتحرز منها أو يستعد لها كما يفعل
سائر الناس ، ويستعدون لدفع برد الشتاء يجمع الدثار ، ولحر
الصيف يأخذ السكن ، ولسنى الغلاء بالأدخار ، ولواضع الفن

بالحرب منها والبعد عنها ، وترك الأسفار عند المخاوف وما شاكل ذلك ، مع علمهم بأنهم لا يصيبهم منها إلا ما كتب الله لهم وعليهم . ذلك بالإضافة إلى أن الناس متى علموا بالحوادث قبل كونها : أمكنهم أن يدفعوها قبل نزولها بالدعاء والتضرع إلى الله والتوبة والإنابة إليه بالصوم والصلاة والقربان ، وسؤاله أن يصرف عنهم ما يخافون نزوله ، وبهذا نزلت الديانات وسنت الشرائع .

ومن وجوه الإنكار أن النورى وهو أحد الأئمة المجتهدين وقد توفى عام ١٦١ للهجرة لقي المنجم اليهودى « ما شاء الله » وكان صاحب حظ قوى فى سهم الغيب والإخبار بأمر الحداث ، فقال له : أنت تخاف زحل وأنا أخاف رب زحل ، وأنت ترجو المشتري وأنا أرجو رب المشتري ، وأنت تغدو بالاستشارة ، وأنا أغدو بالاستخارة فكم بيننا . . . ؟

ويذهب المؤيدون لهذا العلم أن من نظر فى هذا العلم وفكر فى سعة هذه الأفلاك وسرعة دورانها وعظم هذه الكواكب وعجيب حركاتها وأقسام هذه البروج وغريب أوصافها تشوقت نفسه إلى الصعود إلى النلك والنظر إلى ما فيه وليس هذا ممكناً بهذا الجسد الثقيل الكثيف ، ولكن النفس إذا فارقت هذه الجثة ولم يعقها شىء من سوء أفعالها أو فساد آرائها استطاعت أن

تصعد في لمح البصر إلى عالم الأفلاك ، وبغير هذا تبقى تحت فلك القمر سائحة في مقر هذه الأجسام المستحيلة المتضادة تارة من الكون إلى الفساد وتارة من الفساد إلى الكون . والنظر في هذا العلم يعين على الترقى إلى ما هو أشرف وأجل فهو ينبه النفس من نوم الغفلة ورقدة الجهالة .

وقال منكروه إن أحكام هذا العلم وإن لم تبطل من أساسها فإنها لا تصح بأسرها وليس هذا بالهين اليسير ، وصحتها وبطلانها تتوقف على آثار الفلك . وقد يقتضى شكل الفلك في زمان ما ، ألا يصح من أحكام النجوم شيء وإن غاص أهلها على وقائعها وبلغوا إلى أعماقها .

ويرد على ذلك المؤيدون بقولهم إن الصناعة لا تبطل ولا تكون أدلتها فاسدة ، لأن أهلها يتعرضون للأخطار في استدالاتهم ، فعلم النجوم وأدلتها صحيحة وحق ، وإن أخطأ أهله في بعض استدالاتهم أو أكثرها . لأن الله هو الذى نصب الأشخاص الفلكية وأجراها مجاريها وقد جعله الله معجزة لإدريس النبي ، وكذلك الطب وصناعته ، فإن دلالاته صحيحة ، وقد يصيب الأطباء ويخطئون في قضاياهم باستدالاتهم التي نصبوها في أكثرها ، فلا تبطل صناعة الطب من أجل ذلك ، وهكذا أيضاً الفقهاء

والحكام ، وأهل الفتوى في أحكام الدين من الحلال والحرام ،
 قد يصيبون أو يخطئون في قضاياهم واستدلالاتهم التي نصبها لهم
 الباري من آيات كتبه المنزل . فخطوهم وزللهم لا يبطل العلم
 والصناعة والأدلة المنصوبة ، ولكن التقصير والعجز موكولان
 بالإنسان لتقصه عن التمام .

وعلى الرغم من أن أدلة خصوم التنجيم ودعاة الاستخفاف
 به ، تبدو أقوى من حجج أنصاره ومؤيديه ، فإنها لم تذهب بنفوذه
 في قصور الخلفاء والسلاطين وعند عامة الناس على السواء . وقد
 ظل هذا النفوذ قائماً حتى القرن الغابر حين أتى عليه قيام الحضارة
 الغربية عامة ومذهب كوبر نيكوس المتوفى عام ١٥٤٣ بوجه
 خاص . ومن أجل هذا ظل قائماً في البلاد التي لم تغرها الحضارة
 الغربية ، وإن افتقد جلاله الذي كان له في العصور الوسطى .
 ومن الملاحظ أن قضية اليمن كانوا لا يزالون يزاولون صناعة أحكام
 النجوم حتى عهد قريب بل لا تزال له آثار باقية في تلك البلاد
 حتى اليوم .

ومهما يكن من الأمر فقد كان للمنجمين مكانة ممتازة في
 بلاط السلاطين والخلفاء . وقد جاء في كتاب وفيات الأعيان
 لابن خلكان أن الحجاج بن يوسف حين حضرته الوفاة ،

استدعى منجماً وقال له : هل ترى في علمك ملكاً يموت ؟ قال المنجم نعم ولست هو ، لأن الذي يموت اسمه كليب ، قال الحجاج إنه أنا والله « بذلك سميتى أمى » وكتب وصيته . وقد كان جعفر المنصور ثانياً الخلفاء العباسيين ، يلقى المنجمين من حضرته ويستشيرهم في أموره ، وكان نوبخت الفارسي يصحب المنصور ولما ضعف عن خدمته طلب إليه هذا إحضار ولده ليأخذ مكانه ، فسير له ولده أبا سهل .

ويذكر المؤرخون أن المنصور لما حج حجته التي توفي فيها ، رافقه من المنجمين أبو سهل ، بل إن المنصور حين هم بيناه بغداد عام ١٤٥ هـ وضع أساس المدينة في وقت اختاره نوبخت المنجم وما شاء الله بن سارية ، وأن الذين هندسوا المدينة كانوا في حضرة نوبخت وإبراهيم بن محمد الفزاري والطبري من المنجمين . ونستدل من هذا ومن روايات أخرى كثيرة أن بعض الحكام والخلفاء كانوا يعتقدون في صحة أقوال المنجمين . وليس من شك أن هذا الاعتقاد لم يتكون إلا بعد أن خبروا المنجمين وتبينت صحة أقوالهم وتنبؤاتهم في أحوال كثيرة .

وإذا كان المنجمون قد صدقت نبوءاتهم في بعض الحالات فإن هناك روايات تدلنا على عدم تحقق نبوءاتهم في أكثر

الحالات؛ من ذلك اتفاقهم عند ما تم بناء مدينة بغداد عام ١٤٦ هـ أن طالعها يقضى بأنه لا يموت فيها خليفة . وشاع ذلك حتى هنا الشعراء به المنصور حتى قال بعض شعرائه :

يهنيك منها بلدة تقضى لنا أن الممات بها عليك حرام
لما قضت أحكام طالع وقتها أن لا يرى فيها يموت إمام

وأكد هذا القول في نفوس الناس موت المنصور بطريق مكة ثم المهدي بما سبذان ثم الهادي بعساياذ ثم الرشيد بطوس . فلما قتل بها المؤمن الأمين بشارع باب الأنبار ظهر فساد قول المنجمين ولذلك قال الشاعر :

كذب المنجم في مقالته التي نطقت به كذباً على بغداد
قتل الأمين بها لعمري يقتضى تكذيبهم في سائر الحسابان

وقد مات ببغداد جماعة من الخلفاء مثل الواثق والمتوكل والمعتضد والمكتفي والناصر وغيرهم .

ومن ذلك اتفاق المنجمين عام ٣٥٣ هـ عند ما أراد القائد جوهر بناء مدينة القاهرة ، وكان قد سبق مولاه المعز إلى الدخول إلى الديار المصرية لما أمره المعز بدخولها بالدعوة ، وأمره إذ دخلها أن يبني بها مدينة عظيمة تكون نجوم طالعها في غاية الاستقامة

ويكون بطالع الكوكب القاهر وهو زحل أو المريخ على اختلاف حاله . فجمع القائد جواهر المنجمين بها وأمر كل واحد منهم أن يحقق الرصد ويحكمه وأمر البنائين ألا يضعوا الأساس حتى يقال لهم ضعه وأن يكونوا على هيئة من التيقظ والإسراع حتى يوافقوا تلك الساعة التي اتفقت عليها أرصاد أولئك الجماعة ، فوضعت الأساسات على ذلك في الوقت الحاضر وسموها بالقاهرة إشارة إلى الكوكب القاهر ، واتفقوا كلهم بأن الوقت الذي بنيت فيه يقضى بدوام جدهم وسعادتهم ودولتهم ؛ وأن الدعوة لا تخرج فيها عن الفاطمية وإن تداولتها الألسن العربية والعجمية . فلما ملكها أسد الدين شيركوه بن شادى ، ثم ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومع ذلك المصريون قائمون بدعوة العاضد عبد الله بن يوسف ، توهم الناس أن ما قال المنجمون من قبل حقاً لتبدل اللسان وحال الدعوة مستبقي . فلما رد صلاح الدين الدعوة إلى بني العباس انكشف الأمر وزال الالتباس وظهر كذب المنجمين حتى اعتذر من اعتذر منهم بأن البنائين كانوا قد سبقوا الرصادين إلى وضع الأساس .

وقد وقف بعض علماء المسلمين من التنجيم موقفاً وسطاً فلا هو بالمؤمن به ولا هو بالمتنكر له ، من ذلك ما حكاه التنوخى في

كتابه نشوار المحاضرة من أن أبا محمد عبد الله بن عباس
الرامهرمزي المتكلم أخبره قال : أردت الانصراف من عند أبي
على الجبائي - وهو من كبار المتكلمين - إلى بلدى فجثته مودعا
فقال لى : يا أبا محمد لا تخرج اليوم فإن المنجمين يقولون إن
من سافر فى مثله غرق فأقم إلى يوم كذا وكذا فإنه محمود عندهم
فقلت : أيها الشيخ مع ما تعتقده فى قولهم كيف تجئ بهذا ؟
فقال : يا أبا محمد لو أخبرنا مخبر ونحن فى طريق أن فيه سبعا
أليس كان يجب فى الحكمة علينا ألا نسلك ذلك الطريق إذا
قدرنا على سلوك غيره وإن كان ممن يجوز عليه الكذب ؟ قلت :
نعم . قال : فهذا مثله ، وقد يجوز أن يكون الله تعالى أجرى العادات
بأن تكون الكواكب إذا نزلت هذه المواضع حدث كذا والأخذ
بالحزم أولى . قال : فأخبرت خروجى إلى اليوم الذى قاله .

ولقد سبق أن ذكرنا أن علم التنجيم كان مزدهراً فى العالم
القديم وخاصة عند البابليين والآشوريين وفى الهند ومصر والصين
واليونان وروما ، ولكنه تدهور حتى كاد يتلاشى فى أوروبا بظهور
المسيحية . غير أن الفتح الإسلامى لأوروبا فى القرنين التاسع
والعاشر قد أعاد لهذا العلم مكانته فى القارة الأوروبية حتى أنه
كان يعتبر فى عهد دانتى من أسمى العلوم وأنبهها . وكان هناك

منجم خاص لكل ملك أو أمير في أوروبا يستشير في كل أموره؛ فلا يقدم على عمل إلا بعد أن يقرأ له المنجم الطالع . بل والأكثر من ذلك أن بعض البابوات أنفسهم كانوا من المشتغلين بالتنجيم نذكر منهم البابا سلفستر والبابا يوحنا العشرين ويوحنا الحادى والعشرين وچوليوس الثانى وكليمنت الثامن وغيرهم . ولقد تنبأ مارسيليو فسينو Marsillio Ficino منجم دوق فلورنسه المعروف باسم لورنزو العظيم بأن واحداً من أولاد هذا الدوق — وهو جيوفانى ده مديسى — سوف يعتلى الكرسي البابوى . ولما اعتلى جيوفانى هذا الكرسي البابوى تحت اسم ليو العاشر أصبح راعياً للمنجمين ونصيراً لهم .

ونجد أن عالماً دينياً كبيراً وفيلسوفاً من أشهر فلاسفة العصور الوسطى وهو توماس الأكوينى يعلن أن الأجرام السماوية هى السبب فى جميع أحداث هذا العالم الدنيوى .

والواقع أن كل واحد فى العصور الوسطى كان يعتقد فى التنجيم على الرغم من الأخطاء التى وقع فيها كثير من المنجمين . إن المنجمين الأوربيين الأول من أمثال كوبرنيكوس وتيخو براهه وكبلر، بل إن إسحاق نيوتن مكتشف قانون الجاذبية كانوا جميعاً من المهتمين بدراسة « العلم القديم » أى التنجيم كما

كان يعرف في ذلك الوقت . ويقال إن إسحاق نيوتن عند ما التحق بجامعة كمبردج عام ١٦٦٠ — وكان عند ذاك في السابعة عشرة من عمره، سؤل عما يريد أن يدرسه بالجامعة فقال: أريد دراسة الرياضيات لأنى أرغب أن اشتغل بالتنجيم .

ولم يكن رجال الكنيسة أقل تعلقاً بالتنجيم من العلمانيين . فقد أصيب رئيس أساقفة كنيسة القديس اندروز بإنجلترا بمرض أعيا نطس الأطباء الإنجليز فأرسل في طلب المعجم الرياضى المشهور جيروم كاردان من أوربا عام ١٥٥٢ . وقد قرأ هذا المنجم طالع الأسقف وكشف عن مرضه وعالجه حتى برىء . ولما انتهى المنجم من مهمته قال لرئيس الأساقفة : « لقد استطعت أن أبرئك من علتك ولكنى لا أستطيع أن أغير من مصيرك، ولأن أحول دون رأسك وحبل المشنقة » . وحدث بعد ذلك بثمانية عشر عاماً أن شتق هذا الأسقف بأمر من لجنة التحقيق التى أنشأتها ماري كوين الوصية على عرش اسكتلندا .

وعلى الرغم من ذلك فقد وقع المنجمون في أخطاء عديدة جسيمة منها تلك التنبؤات التى جعلت أهل أوربا يبنون الفلك استعداداً للهرب من الطوفان الجديد الذى سوف يحل بالعالم كما قال المنجمون. وذهب المنجمون أيضاً في العصور الوسطى إلى أن

نهاية العالم سوف تكون في عام ١٥٨٤ وأكدهذا القول ليوفتيوس Leovituis منجم بلاط الأمير هنرى أمير البلاطينات؛ الذى قال إن الكواكب تنبئ بأن العالم سيفنى في عام ١٥٨٤ . بل إن كبلر كبير المنجمين والفلكيين في عصره قرأ الطالع للجنرال ولشتين عام ١٦٠٩ وأنبأه بأنه سوف يعيش حتى يبلغ السبعين من عمره ولكن ولشتين قد مات قبل ذلك بنحو تسعة عشر عاماً . ومن المؤكد أيضاً أن كثيراً من تنبؤات المنجمين قد تحققت ، مثال ذلك ما ذكره المنجمون عن ذلك الطوفان الحربى الذى اجتاح العالم في القرن الثالث عشر . ففي ذلك القرن ألقى زعيم إحدى القبائل الرحل التى تقطن السهوب الشاسعة الواقعة إلى الشمال والغرب من الصين الرعب في قلوب الناس . فقد اجتاح هذا الزعيم بخفة وسرعة لم يسبق لها مثيل في تاريخ العالم بلاد آسيا وقهر دوق روسيا الأكبر وقضى على ملكه وعاث في بلاده فساداً . كان اسم هذا الزعيم « چنكيزخان » ولم يكن أحد في العالم في ذلك الوقت يعرف شيئاً عن هذا الزعيم الذى انقض على العالم كالصاعقة أو القضاء المحتوم . لقد كانت دعوات الناس في صلاتهم في ذلك الوقت « اللهم نجنا من غارات أهل الشمال » . لقم كان هذا الفاتح الجبار في الواحد والأربعين من عمره عند ما

خرج في حملته التاريخية الماثلة وكانت إمبراطوريته التي كونها
بجد السيف تمتد من المحيط الهادى حتى نهر الدنيبر .

ولعل القارئ يسأل وما صلة ذلك بالتنبؤ بالغيب الذى هو
موضوع هذا الكتاب ؟ إن لذلك صلة وثيقة كما سندكر فيما يلى :

فى مستهل عام ١١٧٩ وجد كثيرون من المنجمين أن الطوالع
تدل على أن كارثة هائلة سوف تحل بالعالم وبالإسانية ورأوا
أن من واجبهم أن ينبهوا العالم إلى هذا الخطر الذى على وشك
الحدوث ، فكان سكان أوروبا أجمعين ينظرون إلى المستقبل
نظرة ملؤها الخوف والوجل ، لأن المنجمين ذكروا أن هذه الكارثة
سوف تحل عام ١١٨٦ . ولم يكن هذا الخوف مقصوراً على
أهل أوروبا وحدهم بل كان شائعاً فى جهات أخرى غير أوروبا .
فالشاعر والمنجم الفارسى المعروف « أنورى » قد تنبأ بعاصفة
كاسحة فى السادس عشر من شهر سبتمبر عام ١١٨٦ ،
لأن اجتماع خمسة كواكب فى برج الميزان فى تلك الليلة هو الذى
دفع أنورى إلى التنبؤ بهذه النبوءة على الرغم من أن الليلة التى قال
عنها أنورى أن عاصفة كاسحة قد حدثت فيها كانت ليلة هادئة .
وقد سخر أنورى من نفسه لهذا القول أو التنبؤ ولكن تبين
بعد ذلك أن چنكيزخان زعيم التتر الذين اجتاحتوا العالم قد ولد فى

٧٥

تلك الليلة التي قال عنها أنورى وعلى ذلك تكون نبوءة أنورى صحيحة وإن لم يفهم مدلول هذه العاصفة الكاسحة في حينه . ومن المؤكد أيضاً أن كثيراً من تنبؤات المنجمين قد صدقت وتحققت : من ذلك أن بيكودلا ميراندولا وهو من أشهر علماء عصر النهضة في إيطاليا وكان من المتعصبين ضد التنجيم والمنجمين حتى نعته البعض بأنه نقمة المنجمين ، قد تنبأ له ثلاثة من المنجمين أنه سيموت وهو في الثالثة والثلاثين من عمره . وكان من أمر هذه النبوءة أن تحققت بالضبط كما قال هؤلاء المنجمون إذ توفي بيكو في اليوم بل وفي الساعة التي تنبؤا بها ؛ فكان ذلك أكبر نصر للمنجمين الذين حاربهم بيكو طوال حياته . وهناك منجم آخر يدعى بيير دلي Pierre d'Ailly قد تنبأ بالفترة العصبية التي سوف تمر بها فرنسا ابتداء من عام ١٧٨٩ وكان ذلك قبل حدوثها بأربعمائة سنة .

وقرأ أحد المنجمين الإيطاليين ويدعى جوليانو دل كارمن الطالع للدوق السنلرو ده مديسى أول دوق لفلورنسة ، فوجد أن هذا الدوق سوف يُغتال وأن الذى سيغتاله هو ابن عمه لورنزايشو . ورأى المنجم أن من واجبه أن يخبر الدوق بذلك على الفور ، ولكن الدوق استخف بقول المنجم وابتسم لهذه المخاوف التي

تساوره فقد كان أهل فلورنسة أجمعين يحبون الدوق ويلتفون حوله . ورأى أحد حراس الدوق أيضاً في منامه أن الدوق قد اغتيل على يد رجل ضعيف قمىء حتى إن صورته قد علقته في مخيلته . وفي الصباح قص الجندى هذا الحلم على سيده وفي أثناء ذلك دخل لورنزايشو على الدوق فصاح الجندى ، هذا هو الرجل الذى شاهدته في منامى فما كان من الدوق إلا أن صرف الجندى بعد أن أنبه على هذا القول . وفي نفس ذلك اليوم قتل لورنزايشو الدوق أثناء صعوده درجات الكنيسة .

وفي عام ١٤٦٠ نشر جون كاسترانو كتاباً بعنوان « علم الفلك » ذكر فيه هذه النبوءة التالية وقال إنها ستحدث عام ١٦٢٢ :

« إن أسد نصف الليل الأكبر سوف يخرج من عرينه ولكنه لن يرجع ثانية إليه وإن يكن قد قام بما فرض عليه . سوف يقول كثيرون من يعدون أنفسهم من الذين أوتوا الحكمة « إنه لا يستطيع ذلك » ويقول آخرون « ألم نخبركم بذلك مقدماً ؟ أما الذين سوف يقاسون أكثر من غيرهم فسيتجاهلون الأمر وينظرون إلى هذا الأسد على اعتبار أنه ديك لا يخشاه أى صقر . ومهما يكن من الأمر فإن هذا الأسد سوف يزأر في عام ١٦٢٢ »

بصوت عال بحيث تهتر لهم الأرض ويفزع منه جميع البشر .
وقد تحققت هذه النبوءة في عام ١٦٣٢ إذ خرج في
ذلك العام جوستاف أدولف أسد السويد وكان له الشأن الأكبر في
حرب الثلاثين سنة . وهو المدافع الأكبر عن المذهب البروتستانتي
وأوقع الهزيمة بكل من الجنرال تيلي Tilly والجنرال وولنشتين
Wallenstein وهما من أشهر قوادآل هابسبورج المدافعين عن
المذهب الكاثوليكي . ولم تكن السويد ولا أية دولة أخرى من الدول
الإسكندنافية لها أى شأن يذكر في التاريخ الأوروبي في عام
١٤٦٠ وهو العام الذى نشر فيه كابسترانو نبوءته المذكورة .
والمعروف أيضاً أن تيخوبراهة Tycho Brahe (١٥٤٦ -
١٦٠١) أعظم الفلكيين في القرن السادس عشر كان يعتبر
كذلك من أعظم المنجمين ، فقد كرس حياته للتنجيم وهو
لا يزال في الرابعة عشرة من عمره . وكان ينظر إلى الفلك والتنجيم
على اعتبار أنهما شئ واحد وكان هذا هو رأى الكثيرين
من علماء ذلك العصر . لقد اضطر تيخو إلى دراسة التنجيم
سراً لأن أبواه كانا يرغبان في أن يصبح ولدهما محامياً . ويمكن
تيخو في عام ١٥٧٧ - وكان لا يزال شاباً من أن يضحذ
نظرية أرسطو التي كانت متحكمة في العقول زماناً طويلاً ومؤداها

أن السموات محدودة ومحاطة بدائرة صلبة . وقد وصل إلى ذلك بدراسة المذنب الذى ظهر فى ذلك العام . بل لقد كان تىخو فى السابعة عشرة من عمره فقط عندما تنبأ فى عام ١٥٦٣ بالطاعون الكبير الذى اجتاح أوروبا عام ١٦٦٥ ، وقد قال السير دافيد بروسر David Brewster وهو من أعظم علماء القرن التاسع عشر أن تىخو لا يتفوق عليه أحد من الفلكيين سواء فى العصر القديم أو العصر الحديث .

لقد تنبأ تىخو هذا أيضاً بمجىء جوستاف أدولف وذلك من ملاحظته لنجم جديد ظهر فى برج ذات الكرسي Cassiopia عام ١٥٧٢ . فقد ذكر أن أميراً شجاعاً على وشك الظهور وسوف تبهر جيوشه ألمانيا بأسرها ولكنه سوف يخفى هو نفسه عام ١٦٣٢ . والمعروف أن جوستاف أدولف لم يولد إلا عام ١٥٩٤ وقد قتل عام ١٦٣٢ فى موقعة لوتزن .

وكان فى بلاط الملكة إليصابات ملكة إنجلترا منجم يدعى چون دى John Dee وفى ذات يوم استدعى هذا المنجم على عجل لأن جلالة الملكة كانت تريد أن تستوضح منه عن بعض الأمور التى تشغل بالها . لقد ذكر منجم شاب يدعى جولد ماير أن جوستاف أدولف سوف يفقد حياته فى

لوتزن عام ١٦٣٢ . وكانت الملكة إلبصابات هى وحاشيتها يههما موت جوستاف هذا الذى أصبح خطراً يهدد ملكها ولكنها لم تكن تثق فى قول هذا المنجم الشاب . ولكن لما توفى جوستاف فعلا فى عام ١٦٣٢ فى لوتزن أصبح هذا الشاب منجماً شهيراً وكافأه الملك فرديناند الثالث وقربه إليه .

فليس بعجيب إذاً أن نرى الملوك والأمراء فى أوروبا فى ذلك العهد يحتفظون فى بلاطهم بالمنجمين ويحيطونهم بمظاهر التكريم والتعظيم ويستشيرونهم فى كل أمر هام . فوجد أن رودلف الثانى إمبراطور النمسا كان شديد الرغبة فى أن يكون تيخو براهة منجمه الرسمى لذلك استدعاه إلى بلاطه ومنحه راتباً ضخماً وأرضاً يستغلها وابتنى له مرصداً خاصاً زوده بجميع آلات الرصد . وكان رودلف هذا يزهو بأن لديه الجداول الرودلفية وهى الجداول الفلكية التى وضعها تيخو وأصبحت تحمل اسم رودلف وكان الفلكيون يستعملونها بكثرة فى ذلك الوقت . وقد سمح رودلف لمنجمه تيخو أن يستعين بكبلر Kepler فى أبحاثه الفلكية وهو الرجل الذى ذاع صيته فى الفلك بعد ذلك حتى كادت شهرته تغطى على شهرة تيخو براهة .

وچون كبلر هذا من أعظم الفلكيين الذين ظهوروا فى العالم

كما كان أيضاً من أعظم المنجمين . ولقد تنبأ كبلر هذا بمقتل
ولنشتين ولكنه أخطأ في تحديد التاريخ بالضبط . وهو كفلكى
قد وضع القوانين الفلكية التى تنسب إليه وهى التى مكنت
بعد ذلك السير إسحاق نيوتن من الكشف عن قانون الجاذبية .
على أن هذا الفلكى قلما كان يخطئ كمنجم فى تنبؤاته . فقد
ذكر فى تقويمه الفلكى لعام ١٦١٩ أن الإمبراطور متياس
سوف يموت فى شهر مارس من ذلك العام . وقد توفى بالفعل
هذا الإمبراطور فى العشرين من شهر مارس سنة ١٦١٩ .
وكان كبلر إذا قرأ طالع فرد من الأفراد فكأنه يرسم له
صورة واضحة دقيقة وكأنها بريشة المصور العالمى رمبرانت .
لقد قرأ كبلر طالع دوقه فريدلاند (زوجة ولنشتين) ولم يكن
قد رأى هذه السيدة من قبل ولكنه ذكر وصفاً دقيقاً لمنظر
هذه الدوقة ولصفاتها المميزة لها ولزاجها الخاص كل ذلك
بشكل دقيق للغاية، الأمر الذى دفع ولنشتين أن يتخذ من
كبلر منجماً خاصاً له . وكان معنى ذلك فى تلك الأيام أن
يأخذ هذا المنجم راتباً ضخماً ويقطن فى منزل أنيق ويستمتع
بوافر العناية والتكريم . على أن هذا الحظ الذى واتى كبلر قد
جاءه متأخراً لأن كبلر قد توفى بعد ذلك بستين .

لقد كان الأمراء والحكام في أوروبا يطمحون في أن يكون لكل واحد منهم منجم مثل كبلر إذ ما معنى الحياة في نظرهم دون منجم ماهر يبنئهم بما ستأتى به الأيام من أحداث ؟ .
ففي عام ١٦٢٠ تقدم السير هنرى واتون سفير جيمس الأول ملك إنجلترا إلى كبلر بعروض سخية ولكنه أخفق في سفارته ولم ينجح في إغراء هذا الفلكي الشهير على الذهاب إلى إنجلترا إذ أثر كبلر العوز على أن يعيش في بيئة غريبة عليه في كل شيء .

على أن إنجلترا كانت في الوقت الذي رفض فيه كبلر أن يذهب إلى هناك تمهد لمنجمها الخاص . فإنه في نفس العام الذي قابل فيه السير هنرى واتون المنجم كبلر وعرض عليه الذهاب إلى لندن—وقد على هذه المدينة شاب قوى البنية من أهل الريف . وكان في ذلك الوقت في الثامنة عشرة من عمره على حظ قليل من العلم وعلى دراية باللغتين اليونانية واللاتينية وقد جاء إلى لندن سعيًا وراء الرزق . واشتغل هذا الشاب في بداية أمره في بعض المهن الحقيرة ثم جرت الصدفة بعد ذلك إلى الاتصال بالدكتور سيمون فورمان Simon Forman وكان من المشتغلين بالعلوم الخفية فحبب هذا العالم للشاب وكان يدعى ليلي Lilly

دراسة التنجيم ، وتزوج هذا الشاب بعد وفاة أستاذه من أرملته وكانت على حظ من الثراء فتمكن من دراسة التنجيم على يد بعض المشتغلين بهذا العلم .

وقد أخذ هذا الشاب منذ عام ١٦٤١ ينشر تنبؤاته التي قابلها المثقفون في ذلك الوقت بالضحك والسخرية ولكن كثيراً من علية القوم الإنجليز كانوا يذكرون بعد ذلك تنبؤاته بالإعجاب ومن بينهم شارل الأول وكرومويل ، بل كان ليللى هذا في وقت من الأوقات يعتبر المنجم الخاص لكرومويل .

ومن الأسباب التي أدت إلى شهرة ليللى هذا تنبؤه بالطاعون الأعظم وبحريق لندن الشهير . ومن المعروف أن البرلمان الإنجليزى عند ما أخذ يبحث عن أسباب حريق لندن الهائل الذى حدث عام ١٦٦٦ استدعت اللجنة القائمة بهذا البحث ليللى وسألته ما إذا كان تنبؤه هذا قائماً على علمه بمؤامرة كانت تدبر لهذا العمل أم قائماً على حسابات فلكية . وقد أقنع ليللى اللجنة أنه تنبؤه هذا كان قائماً على حسابات فلكية دون غير . وأخذ ليللى هذا يصدر التقاويم الفلكية التي نال بسببها شهرة فائقة وحصل من ورأها على ثروة كبيرة .

الفصل الخامس التنبؤ بالغيب في أوروبا

مر وقت في العصور الوسطى كان فيه أهل أوروبا وخاصة البلاد التي تعرف الآن باسم ألمانيا والنمسا يعملون بجد ونشاط وفي أيديهم القؤوس والمعاول في بناء الفلك على نحو ما كان يصنع نوح لكي يعتصموا بها من الهلاك غرقاً . كان الناس يسرعون في بناء تلك السفن وقلوبهم مملوءة فرعاً لأن واحداً من العرافين المشتغلين بعلم التنجيم ويدعى چوهان ستوفلر Johann Stoffer قد أعلن بناء على حساباته التي لا يتطرق إليها الخطأ أن فيضانا آخر على مثال فيضان نوح سوف يحتاج أوروبا بأمرها ويهلك أهلها أجمعين ، فلم يكن أمام الناس إلا أن يبحثوا عن وسيلة تعصمهم من هذا الفناء المحقق . غير أن هذا الفيضان المزعوم لم يتحقق ، بل قام عراف آخر أكثر شهرة من العراف الأول هو جورج تنستتر Tannenstetter من أهل فيينا وأخذ يفند ادعاءات ستوفلر وأعلن أن ليس هناك مايدل على حدوث مثل هذا الفيضان وأن نبوءة ستوفلر هذا كاذبة .

كان ذلك في القرن السادس عشر ، أما اليوم فلو قام منجم أو عراف وأعلن مثل هذه النبوءة الخاصة بنهاية العالم لقابلها الناس بالسخرية والابتسام وقد لا يحفل بها أحد البتة إلا ضعاف القلوب والعقول ، أما في العصور الوسطى فلم تكن مثل هذه النبوءة تمر دون أن تحدث الفرع والهلح في قلوب الناس لأنه كانت هناك فكرة شائعة متأصلة في النفوس وهي أن الدنيا قد قاربت نهايتها بل إن هذه الفكرة كانت في القرن العاشر الميلادي جزءاً من العقيدة العامة التي يعتنقها أهل أوروبا. لقد كان الناس في ذلك العصر يتطلعون إلى نهاية العالم كما نتطلع نحن أبناء القرن العشرين إلى السماء انتظاراً لدلائل الغيث بعد فترة من الجفاف . وقد ذكر معظم العرافين عام ٩٩٩ على أنه التاريخ الذي سوف تحدث فيه هذه الطامة الكبرى .

كان الناس يتوقعون أن يكون يوم الحشر في بيت المقدس لذلك كان عدد الحجاج المتجهين ناحية المشرق في عام ٩٩٩ من الكثرة بحيث كانوا يشبهون بجيش عروم هائم على وجهه . لقد باع معظم هؤلاء الحجاج جميع ما يملكون من حطام الدنيا قبل أن يغادروا أوروبا في طريقهم إلى بيت المقدس وأخذوا يعيشون على دخل الأراضي المقدسة .

لقد أهمل الناس تشييد المباني العامة أو إصلاحها إذ ما الداعي إلى ذلك ونهاية العالم أصبحت قاب قوسين أو أدنى وكانت النتيجة أن أصاب التلف والدمار الكثير من هذه المنشآت العامة بل وتهدم أغلبها ولم ينج من هذا المصير المقلع الكنائس وبيوت العبادة .

لقد اتجه إلى بيت المقدس الأمراء والفرسان ورجال الدين والعبيد والجميع يسرون صحبة واحدة ومعهم أولادهم وأزواجهم ينشلون الأناشيد والترانيم وهم في طريقهم وعيونهم متجهة إلى السماء في خوف وتضرع ووجل يتوقعون في كل لحظة أن تنفجر السماء ويهبط منها السيد المسيح .

ولما لم تحن نهاية العالم في القرن العاشر توقع الناس من جديد أنها سوف تحين في القرن الحادى عشر أو الثانى عشر أو بعد ذلك إذ لا بد أنها آتية لا محالة. وأصبح تعلق الناس بهذه الساعة الأخيرة هو الأمل الثانى لم بعد التعلق بالحياة . لقد أخذ المنجمون في وقت من الأوقات يرسلون الأنبياء إلى جميع البلاد معلنين أن نهاية العالم وفناء الجنس البشرى سوف يكون في عام ١١٨٦ . غير أن هذا الحادث الجلل لم يقع وصار يؤجل من وقت لآخر وكأنه تمثيلية كبرى تؤجل الحين بعد الحين .

إن العرافين في الوقت الحاضر ومفسري النبوءات الكثيرة الواردة في الكتاب المقدس أو التي ينطوى عليها سر الهرم الأكبر يقولون إن « نهاية الزمن » تعني أنه ستكون هناك تغيرات كبيرة جوهرية في العالم دون أن يعني هذا نهاية العالم إنما يعني عصراً جديداً وليس فناء العالم وكل ما فيه .

وقد ظهر قبل العهد المسيحي مجموعات من كتب التنبؤات تناولتها أيدي الصفوة المثقفة من اليهود ذوى العقول المستنيرة الذين نهلوا من الثقافة اليونانية . وكانت هذه الكتب تنبئُ بمجيء عصر سوف تسود فيه العدالة بين الناس ويعيش الناس في سلام ووثام متحابين متعاونين ، وأن الأرض سوف تخرج طيبتها من فاكهة مختلف ألوانها وأن المدن سوف تعج بالطيبين الأخيار من الناس . وسوف تخلو الأرض من الزلازل والحروب والمجاعات .

وفي صدر العصر المسيحي أضاف المسيحيون إلى هذه التنبؤات التي تبشر بالمدينة الفاضلة تنبؤات أخرى تشير إلى أن العالم سوف يمر بعصر ذهبي تسوده المحبة والرخاء والسلام . وكان الرومان من ناحية أخرى لا يحفلون بهذه التنبؤات المختلفة وفي عهدهم ظهرت نبوءات أخرى تنبئُ بزوال

الإمبراطورية الرومانية ولكنهم سخروا من هذه التنبؤات لأنهم كانوا يعتقدون أن الإمبراطورية الرومانية عبارة عن كيان أو نظام أبدي لا يمكن أن يزول ولذلك نجدهم يحفظون هذه المجموعات التنبؤية في الكايتول بعيدة عن متناول أيدي الناس بل إنهم سنوا من القوانين في عام ٤٠٥ للميلاد ما تفرض الموت على من يعرف عنه أنه اطلع على هذه الكتب المليئة بأخبار الغيب. ولذلك اتخذت التنبؤات بعد ذلك في أوروبا وجهة أخرى سنذكرها فيما يلي .

إن من الأسباب التي جعلت التنبؤات في العصور الوسطى تتسم بهذه السمة المحزنة المفزعة أن الأشخاص الذين كانوا يقرأون الكتب المقدسة كانوا يقرأونها قراءة حرفية في لغاتها القديمة كما أنه كانت تراود أذهانهم فكرة مجيء المسيح الدجال والمسيح الدجال يعد سبباً آخر من أسباب هذا الفزع المزمع العام الذي كان يهدد أهل العصور الوسطى .

لم يكن هناك خبر عن موعد ظهور هذا المسيح الدجال غير أن نفراً من كبار العالمين ببواطن الأمور اتفقوا على أن المسيح الدجال على وشك الظهور . ونذكر أنه في عام ٣٨٠ أعلن مارتن Martin أسقف تورز بتهيب ووقار أن المسيح

الدجال يعيش بالفعل وإن كان لا يزال صبيّاً . وفى عام ١٠٨٠ أى فى الوقت الذى كان فيه أهل أوربا يعتقدون فى زوال العالم — ذكر أسقف فلورنسه مؤكداً أن المسيح الدجال قد ولد . وبعد ذلك بأكثر من ثلاثة قرون أى فى عام ١٤١٢ رأى أحد كبار رجال الوعظ المسيحيين أن من واجبه أن يكتب للبابا بنديكت Benedict الثالث عشر منبئاً أن المسيح الدجال قد بلغ بالفعل التاسعة من عمره . وقال كثيرون غير هؤلاء إنهم رأوا الرؤى التى تشير إلى قرب ظهور المسيح الدجال وإنه أصبح من الضروري أن يعد المؤمنون أنفسهم لهذا القتال الرهيب الذى على وشك الوقوع .

وتحوى بعض المؤلفات القديمة سلسلة من الصور تمثل ولادة وحياة وموت رجل الشر (المسيح الدجال) . بل إننا نجد فى عهد متأخر أى فى منتصف القرن التاسع عشر أن العرافة جوزفين لامرتين — وهى عرافة مشهورة من أهل اللورين بفرنسا — تتكهن بأن المسيح الدجال سوف يولد فى عام ١٩٠٠ ولو كانت نبوءة هذه العرافة صحيحة لكان المسيح الدجال الآن يملأ الأرض جوراً وظلماً وظلاماً .

ومهما يكن من الأمر فإنه فى تلك العصور الوسطى قد

اختلطت النبوءات الصادقة بالأخرى الكاذبة حتى كان من الصعب التفرقة بينها . والواقع أن شعور الناس بالإثم والخطيئة والانحلال قد انعكس في صورة التنبؤ بالعقاب الذى لا مفر منه والنوازل التى سوف تحل بالبشر .

وكان هناك إلى جانب هذه النبوءات العامة التى كان يعتقد فيها المسيحيون بوجه عام نبوءات خاصة بكل دولة من الدول الأوروبية .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية التى ظلت على قيد الوجود حتى سقوط عاصمتها القسطنطينية في يد الترك عام ١٤٥٣ غنية بصفة خاصة بهذه النبوءات .

في القرن الحادى عشر انتشرت في القسطنطينية بعض النبوءات التى تنسب إلى متوديوس Methodius أسقف بطراء الذى استشهد في أوائل القرن الرابع إبان حكم الإمبراطور ديوقلتيان . في ذلك العهد البعيد ظهرت بعض التنبؤات تقول إن الإسماعيليين أو العرب سوف يقهرون كثيراً من البلاد المسيحية عقاباً لرجال الدين والعلمانيين على السواء على ما ارتكبه من خطايا وآثام . وقد ترددت على الألسن هذه النبوءات طوال قرون عدة وتحققت بالفعل بعد ذلك بأربعة قرون . وكانت

هناك نبوءة أخرى تذكر أن الترك سوف يروون ظمأ جيادهم من مياه نهر الرين . والذي حدث بعد ذلك أن المغول بقيادة جنكينز خان قد اجتاحتوا آسية وأوروبا في القرن الثالث عشر وسقوا جيادهم من عدة أنهار أوربية وإن لم يكن منها نهر الرين على التحقيق .

وتنبأ الإمبراطور الفيلسوف ليو Leo في القرن التاسع بفتح المسلمين للإمبراطورية البيزنطية وقد تحققت هذه النبوءة بالفعل بعد ذلك بستة قرون تقريباً . وقد عثر قبيل استيلاء الترك على الدولة البيزنطية في دير بالقسطنطينية على لوحة تنسب إلى الإمبراطور ليو مييناً بها في تعاقب صحيح أسماء الأباطرة والبطارقة في هذه الدولة طوال ستة قرون انتهت بزوال هذه الإمبراطورية . ويستدل من هذه اللوحة أيضاً أن قنسطنتين سوف يكون آخر أباطرة هذه الدولة . وبالفعل قد تحققت هذه النبوءة وكان الإمبراطور قنسطنتين بليولوجوس الذي لقي حتفه عند ما استولى الترك على مدينة القسطنطينية آخر أباطرة بيزنطة .

والواقع أن النبوءات لم تختفي قط من هذه الإمبراطورية البيزنطية . لقد كانت هناك تنبؤات كثيرة عن حكم الأباطرة ومستقبل الإمبراطورية منها تلك النبوءة التي ظهرت قبل عام

١٤٥٣ بقليل وجاء فيها أن العدو سوف ينقض على المدينة ويقضى على عظمها وبهاؤها ويدنس معابدها ونسائها ويجعل مبانها طعمة للنيران وذلك بسبب الدم الذى يسفك والجرائم التى ترتكب فى بيزنطة . وقد تحقق ذلك كله إبان حصار القسطنطينية ثم وقوعها فى أيدي الترك .

ومن حسن طالع الإمبراطور الفيلسوف ليو أن معظم نبوءاته قد ظهرت وعرف بها الناس بعد وفاته بزمان طويل ولذلك لم يكن هدفاً لتلك المضايقات والاعتداءات التى كثيراً ما كانت تصيب هؤلاء المتنبيين خصوصاً إذا تنبأوا بأشياء لم تصادف هوى فى نفوس الناس . وبهذه المناسبة نذكر حالة نبوءة من النبوءات كان جزاء قائلها الموت حرقاً .

حدث فى ربيع عام ١٥١٧ أن ظهر فى روما - وكانت الأمور فيها تسير على أحسن ما يكون - راهب فقير أخذ يحجب شوارع هذه المدينة العظيمة صائحاً : « الويل الويل لهذه المدينة التى سوف تقع فريسة فى أيدي الأمم فيما وراء الألب لهذه الخطايا المنكرة التى يرتكبها البابوات والأساقفة . » لقد كانت روما فى ذلك الوقت مدينة مزدهرة يعمها الرخاء والأمن والسلام إذ لم تكن قد تعرضت لأية غزوة خارجية منذ

أكثر من خمسة قرون . وكانت في ذلك الوقت تزدهم بالسكان والتجار والكهنة وجنود البابا والحراس والأساقفة . وكان البابا كليمنت الثامن يتربع على عرش البابوية في قصره المنيف والعالم كله في أمن وسلام . وما هو ، راهب خرب العقل كانت له الجرأة أن يسير في طرقات هذه المدينة العظيمة وينادى بالويل والثبور ويتنبأ بدمارها والقضاء عليها . وما أن سمع البابا بنجر هذا الراهب حتى قبض عليه وزج به في السجن ، ثم أفرج عنه بعد فترة قصيرة ولكن على شرط أن يغادر المدينة على الفور بحيث إذا عاد إليها ثانية أغرق في مياه نهر التير .

عاد بعد ذلك الراهب — وكان يدعى بارتولوميو براندانو — مرة ثانية إلى روما وصنع نفس الأمر الذي صنعه من قبل منادياً بانتقام إلهي عادل من المدينة ورجال الدين ناعثاً البابا كليمنت بأحق الصفات . وكان أن قبض ثانية على هذا الراهب وألقي به في نهر التير ولكنه لم يغرق فأمسك به وزج في السجن .

وقد حدث بعد ذلك بعشر سنوات أن أغار جماعة من الجنود المرتزقة للإمبراطور شارل الخامس تحت قيادة شارل ده بربون على مدينة روما وقاموا بالكثير من أعمال السلب والنهب والتقتيل . وكان أن اضطر البابا كليمنت إلى عقد

معاهدة تسليم مخزية مع الإمبراطور شارل . وأطلق جنوده سراح الراهب براندانو بعد أن ظل في سجنه سنوات عدة لقي فيها الكثير من أنواع التعذيب والإرهاق نتيجة لهذه النبوة التي قال بها، ولعل البابا كليمنت نفسه قد جال في خاطره ذكرى هذا الراهب عند ما وقعت الواقعة وشاهد مدينة روما نهباً مستساغاً لهذه الطغمة من الجنود المرتزقة .

كانت هناك نبوءات كثيرة مثل هذه تدور على الألسن أكثر من ألف عام وكلها تدور حول مصير روما وأهلها لذلك كان نهب مدينة روما على يد شارلده بربون أمراً متوقعاً .
والواقع أن هذه التنبؤات التي صدرت ضد روما إنما كانت موجهة إليها على اعتبار أنها ترمز إلى الكنيسة والبابوية ، ولم تكن هذه التنبؤات تصدر عن عرافين محترفين فحسب بل كانت تصدر أيضاً عن رجال من أهل الكنيسة تنبأوا بما سوف يحل بالكنيسة من السخط والهوان للذنوب والخطايا التي وقع فيها رجالها كالماتجرة بالرتب الكهنوتية والانغماس في الملاذ والترف وهي الخطايا التي وقع فيها كثير من البابوات ورجال الدين .
ومن المعروف أن روجر باكون (١٢٦٧) الراهب الإنجليزي والعالم الشهير وكذلك دانتي كان كل منهما يعتقد

فى أن تغيراً مفاجئاً سوف يطرأ على الكنيسة يؤدى بها إلى حالة أفضل وأحسن . وقد تنبأ باكون بأن كاهناً ورعاً سوف يقوم بهذا التغيير .

ويغلب على الظن أن معظم العرافين والمتنبئين الذين قالوا بهذه التنبؤات المتصلة بالكنيسة كانوا متأثرين بنبوءات عراف شهير ظهر فى العصور الوسطى وكان له أثر كبير على غيره من المتنبئين ذلك هو العراف جوشم . Joachim

لقد توقف الملك ريتشارد قلب الأسد إبان حملة له على الأراضى المقدسة لمحاربة صلاح الدين الأيوبي ، فى مدينة فيور من أعمال مقاطعة كلابريا بإيطاليا لاستشارة رجل كان يعد فى ذلك الوقت أعظم منبئ ظهر منذ عهد الرسل . لقد كان هذا الرجل على جانب كبير من الورع والتقوى وصفاء النفس وكانت شهرته كمنبئ قد عمت جميع العالم المسيحى . هذا الرجل هو جوشم وهو راهب بندكتينى انفصل عن طائفته وأنشأ له ديراً خاصاً به فى فيور . وعلى الرغم من أن هذا الراهب قد تنبأ بأشياء كثيرة فى غير صالح البابوية إلا أن الباباوات مع ذلك قد بسطوا عليه حمايتهم وجعلوه تحت رعايتهم . وكان هذا الراهب يقول إنه لم يمنح هبة الكشف عن الغيب إنما

٩٥

منح هبة الفهم والإدراك . وهو يذكر في إحدى كتبه كيف أنه تاه في ميدان التأمل والتفكير في ليلة عيد الفصح ف شعر أن شعاعاً من الضوء اللامع قد نفذ إلى أعماق نفسه وأن إلهاً ملجأً قد حل به فجعل كل أسرار الكتب المقدسة واضحة أمامه كما كانت واضحة أمام الرسل والأنبياء .

لقد تنبأ جو شم هذا بالمسيح الدجال وأخبر ريتشارد قلب الأسد أن هذا المسيح الدجال سوف يعتلى سرياً الكرسي البابوي .

وبعد وفاة جو شم هذا أخذت الطبقة المثقفة من الناس تستمع إلى الدروس التي تفسر فيها نبوءات هذا الراهب الكبير إذ كانت هذه النبوءات تدرس كما يدرس الكتاب المقدس . وقد ذكر جو شم في كتبه أن العصر الكبير الأول من تاريخ العالم هو عصر الأب أي ما قبل العهد المسيحي أما العصر الثاني فهو عصر الابن ويمتد حتى عام ١٢٦٠ للميلاد أما العصر الثالث فهو عصر الطيف المقدس ويبدأ من عام ١٦٢٠ ويتضمن تغييراً وتطهيراً شاملاً للكنيسة . وكان يرى أن الكنيسة قد انغمست في الشهوات وغدت وكراً للصوم ومن ثم احتقر الناس رجال الدين .

وكانت هناك غير ذلك نبوءات كثيرة ضد الكنيسة يتداولها الناس في كل مكان وقد أفصح عنها كل من دانتي ومكيافلي في كتاباتهما . ولعل أبرز شخصية ظهرت بعد ذلك في ميدان التنبؤ بالغيب هي شخصية ساقونارولا الذي تنبأ بأشياء كثيرة تحققت كلها تقريباً . مثال ذلك أنه تنبأ بطرد أسرة ده مديسي الشهيرة من فلورنسه وقد تحقق ذلك . وتنبأ بالغزو الفرنسي لإيطاليا في عهد شارل الثامن ملك فرنسا وقد تحقق ذلك ، كما تنبأ أيضاً بدمار روما تدميراً تاماً بالنيران بسبب فسوق أهلها وهذا أمر لم يتحقق اللهم إلا إذا اعتبرنا نهب روما على يد ده بوربون بعد موت ساقونا رولا بتسع وعشرين سنة تحقيقاً لهذه النبوءة .

لقد كان هذا الراهب الدومينيكي العجيب يرى الرؤى الصادقة ويسمع الهواتف العلوية ، فقد شاهد في مساء الجمعة الحزينة من عام ١٤٩٢ رؤيا هي عبارة عن صليبين هائلين ورأى سيفاً يتدلى من السماء فوق إيطاليا وغير ذلك من الرؤى . وقد ذاع صيت هذا الراهب حتى أصبح المتسلط على أهل فلورنسه .

غير أن أعداءه وحاسديه قد أخذوا يتزايدون فكان أن

سجن وعذب واستخلص منه عن طريق التعذيب اعترافاً ينكر فيه ادعاءه أن له قوى تكشف عن الغيب فحوكم محاكمة صورية حكم عليه بعدها بالموت حرقاً - في الثالث والعشرين من شهر مايو عام ١٤٩٨ وبحضور مندوبين عن البابا اسكندر السادس الذي نعته سافونارولا بالشیطان جرد سافونارولا من رداءه الكهنوتي وتلى عليه الحكم بالإعدام هو واثنين من أتباعه المقربين إليه . وقد شق الثلاثة وأحرقت جثثهم وهي معلقة في المشاقق .

ويعد سافونارولا اليوم عند الكثيرين من القديسين والشهداء والمنتبين الصادقين في نبوءاتهم .

وقد يكون ميشيل نستراداموس هو أعظم المنتبين الذين ظهوروا في القارة الأوروبية Michel Nostradamus وقد احتل هذا المنتبي مكانة مرموقة لم يرق إليها أحد غيره من مشاهير القرن السادس عشر عصر النهضة الزاهر ، وكانت له قدرة عجيبة على التنبؤ بالغيب ، فما أن ذاع صيته في هذا الميدان حتى أخذت أوربا كلها تتحدث عنه وأرسل إليه الملوك والأمراء يدعونه ليقرا لهم ما يجتبه لهم المستقبل من أحداث ، وحج العظماء إلى بلدته سالون Salon من مقاطعة بروفانس بفرنسا ليكشف لهم ما خفي عنهم من أمور وأحداث .

لقد درس نستراداموس هذا الطب وكانت له مقدرة فائقة في معالجة المرضى الذين كانوا يقعون صرعى للطواعين التي كانت تعتاج أوروبا من حين لآخر إبان القرن السادس عشر حتى كثر حساده من الأطباء فأذاعوا عنه أنه يشتغل بالسحر والعلوم الخفية . والواقع أن نستراداموس كان يقضى معظم أيامه في الطبقة العليا من منزله وسط مجلدات ضخمة مكتوبة بلغات متعددة وحوله أدوات كثيرة مما يستخدمها المنجمون والسحرة كالأسطرلاب والمرابا السحرية . ويذكر نستراداموس نفسه أنه قد أحرق بعض الكتب المصرية القديمة بعد أن حفظ محتوياتها عن ظهر قلب وقد ورث هذه الكتب عن أجداده وكانت تحوى كثيراً من علوم المصريين والمجوس .

وقد زار نستراداموس كثيراً من البلاد الأوروبية واجتمع بمشاهير العلماء والمشتغلين بالكيمياء والتنجيم وتباحث وإياهم في شتى الموضوعات العلمية .

وحدث أثناء زيارته لمدين إيطاليا أن شاهد في إحدى القرى الصغيرة راهباً فرنسيسكياً يدعى فيلكس بيرتى Felix Peretti فأن رآه حتى ركع نستراداموس أمام هذا الراهب بكل خشوع واحترام ولما سأله في ذلك الرهبان الآخرون أجابهم : إني أركع

أمام قداسته . غير أن الرهبان لم يهتموا بهذه النبوءة لأن ييرنى هذا لم يكن يمتاز عنهم بشيء البتة ولكن هذا الراهب القروى قد أخذ يرقى المناصب الكهنوتية الواحد بعد الآخر حتى ولى العرش البابوى عام ١٥٨٥ ولقب بـ « سكتوس السادس »

وكان نستراداموس هذا ينشر تنبؤاته فى شكل رباعيات شعرية وقد نشرت لأول مرة فى عام ١٥٥٥ وتضمنت كثيراً من النبوءات التى تحققت على مر الأيام منها مقتل شارل الأول ملك إنجلترا وثورة أوليفر كروويل ومقتل لويس السادس عشر ملك فرنسا والثورة الفرنسية وحمىء نابليون بونابارت وغير ذلك من الأحداث العالمية الشهيرة .

وقد أصيب نستراداموس فى أواخر أيامه بمرض الاستسقاء وثقل عليه المرض فاعتكف فى بيته لا يرى أحداً من الناس إلا تلميذه الوبى شافنى Chavigny وإثنين أو ثلاثة من أصدقائه المقربين . وقد أوصى أن يدفن واقفاً فى كنيسة الفرنسيسكان حتى لا يطاء أحد على عظامه .

وفى مساء اليوم الأول من شهر يوليه سنة ١٥٦٦ تركه تلميذه شافنى بعد أن ألقى عليه تحية المساء والعبارة المألوفة : « إلى الغد يا أستاذ » ولكن نستراداموس هز رأسه بحزن وتمم

قائلا : في الغد عند شروق الشمس سوف لا أكون موجوداً .
 وفي الصباح كان نستراداموس جثة هامدة فوق مقعده .
 ولقد بكاه أهل بلده طويلاً وكانوا يعتقدون أن نستراداموس
 لم يموت ولكنه اعتزل الحياة ليتابع دراساته ، ونقش على الحائط
 الذي يضم رفاتة هذه الجملة : « لا تعكر سلام الموتى » ثم
 أضافت إليها زوجه : « هنا ترقد عظام ميشيل نستراداموس
 الشهير الوحيد في رأى جميع البشر الذى يسجل بقلمه المقدس
 أحداث العالم المستقبل وفقاً لتأثير الكواكب » .
 ولقد توفي نستراداموس بالغاً من العمر اثنين وستين عاماً
 وستة شهور وسبعة عشر يوماً .

الفصل السادس الأحلام والتنبؤ بالغيب

لقد كثر الكلام عن الأحلام وعلاقتها بالتنبؤ بالغيب وانبرى
نفر من العلماء المبرزين لدراسة هذه الظاهرة العجيبة ووضعوا
فيها الكتب والمطولات وضمنوها كثيراً من الأحلام التي تحققت
عن آخرها .

ولعل أشهر من قام بهذه الدراسة هو الفلكي الفرنسي
الشهير « كامبل فلاماريون » في كتابه « لغز الحياة النفسية »
The Riddle of Soul Life إذ كان من المؤمنين بأن هناك رؤى
صادقة تتحقق عن آخرها في العالم المحسوس . ومن الأمثلة التي
أوردها في كتابه المذكور تلك الحادثة التي ذكرها على لسان
شاهدة معتمدة موثوق بكلامها إذ قالت :

« حوالى أواخر شهر نوفمبر من عام ١٨٧١ وأعتقد أن
ذلك كان في يوم الأربعاء الموافق الثاني والعشرين من نوفمبر ،
كنت في ضيافة أسرة المستر دافيدسن في نيواورليانز ، وقد

١٠٢

حضر لزيارته نفر من الأصدقاء من بينهم مدام ثلتون وقد قصت على الحاضرين عدة أحلام رأتها في منامها وقالت أن هذه الأحلام قد تحققت عن آخرها ، ولكن الحاضرين لم يكونوا في مركز يسمح لهم بالتحقق من صدق ما ذكرته هذه السيدة . وبعد أن أفاضت في ذكر أحلامها التي تحققت سألها المضيف :

إني أسألك يا مدام ثلتون هل رأيت في منامك حلماً يتصل بي ؟

فقالت : « إنني رأيت البارحة فقط يا مستر دافيد سن حلماً يتصل بك » .

وقد سألها الحاضرون بلهفة أن تقص عليهم ما رأته في حلمها .

فقالت : « لقد رأيت في منامى أنني سوف أعود لزيارتكم لدعوة عاجلة وذلك بعد ستة أسابيع من اليوم .

فقال المضيف : « إن هذا الحلم من السهل تحقيقه » ثم مال على أحد الحاضرين وقال : « أرجو أن تذكر لنا متى سيكون ذلك اليوم الموعود ؟ » وعند ذلك أخرج أحد الحاضرين

١٠٣

مفكرته وقال إنه سيكون في يوم الأربعاء الثالث من شهر يناير عام ١٨٧٢ .

« حسناً سوف نختبر جميعاً صدق أحلام هذه السيدة .
وعند ذلك تابعت مدام ثلتون الحديث قائلة : « مهلاً أيها
السادة . إنني رأيت في منامي أيضاً أنني عند ما دخلت البيت
وجدته خالياً وبحث من المستر دافيدسن ولكني لم أجده وأخيراً
رأيت وسط قاعة الاستقبال تابوتاً معدنياً كبيراً . وكان غطاء
التابوت محكماً ولم أر شيئاً آخر إلى جانب ذلك ولكني أدركت
أنك مسجى داخل هذا التابوت » .

وعند ذلك انفجر المضيف ضاحكاً وشاركه في ضحكها
جميع الحاضرين ثم وجه دافيدسن الكلام إلى زوجه متهمكاً :
« إنى أرجو منك تابوتاً غير معدنى لأننى لا أحب الترابيت
المعدنية ، إنى أريد تابوتاً بسيطاً من الخشب » .

وقد وعدته زوجه بذلك ضاحكة وقالت إنها سوف تلبى
رغبته في حالة ما إذا كانت ستخلفه .

ثم تابعت مدام ثلتون الحديث قائلة : « إننى لم أشاهد سوى
سيدة واحدة في قاعة الاستقبال فوقفت إلى جوارها . وكان
منقوشاً على غطاء التابوت ست ورود فضية . »

وقد ضحكك الجميع أيضاً من هذه الحلية العجيبة ولكن مدام ثلتون ظلت على هدوئها وقالت : « ولقد عجبت أنا أيضاً عند ما شاهدت ذلك في الحلم » .

ولقد تفرقنا بعد ذلك بعد أن تواعدنا على أن نلتقي ثانية يوم الأربعاء الثالث من شهر يناير كما جاء في حديث هذه السيدة .
وحدث في اليوم الثاني من شهر يناير عام ١٨٧٢ حادث محزن للمستر دافيدسن إذ دهمته قاطرة فأزهقت روحه .

وفي صباح اليوم التالي وضع جثمانه في تابوت . وقد رغبت أسرته في أن لا يرى أحد وجهه المشوه نتيجة لهذا الحادث . وقد آليت على نفسي أن أمكث إلى جوار هذا التابوت وظللت في مكاني حتى بعد أن أحكم غلق التابوت .

وقد حضرت مدام ثلتون إلى المنزل في اليوم الموعد فوجدت التابوت في قاعة الاستقبال وليس إلى جانبه سوى . فجاءت ووقفت إلى جانبي وظللنا نحن الاثنين وقوفاً إلى جانب التابوت دون أن ننظر واحدة منا إلى الأخرى . وفجأة لمست مدام ثلتون يدي وأشارت إلى ست وردات فضية تزين غطاء التابوت المعدني فنظرت إليها متسائلة فتمتمت قائلة : « ألا تذكرى الوردات الست الفضية التي رأيتها في منامي بوضوح ؟ »

وبعد ذلك بأسبوعين قالت لي أرملة المستر دافيدسن :

١٠٥

« ألا تذكرى ذلك الحلم العجيب إن كل شيء قد تحقق كما رأيت صديقتنا فى منامها حتى التابوت فأننى لم أنس فى حزنى وصية زوجى التى أوصانى بها . ولقد سألت الخانوقى عن السبب الذى من أجله أحضر هذا التابوت المعدنى على الرغم من طلبى إعداد تابوت خشبى فعلمت أنه لم يكن من الممكن العثور على تابوت خشبى بالمقاس المطلوب فلم يجد سوى هذا التابوت المعدنى فاضطر تحت ضغط الظروف إلى استخدامه . » ولقد قام المستر فلاماريون بالتحقق من صدق هذه الرواية بنفسه وكان لا يزال من شهودها الثلاثة عشر تسعة أشخاص على قيد الوجود فأكدوا جميعاً ما سمعوه من مدام ثلتون وما كان من تحقق حلمها عن آخره .

وهناك حادثة أخرى ذكرها هنريش كارل بروش Heinrich Karl Brugsch أحد علماء الآثار المصرية فى القرن التاسع عشر فى مذكراته وهى تتصل بحلم رآه الحديدو إسماعيل عام ١٨٧٥ حيث قال :

« لقد كنت فى طريقى إلى جوتنجن لتوديع أسرنى التى كانت تعيش هناك على أن أبجر بعد ذلك مباشرة من ميناء برمين على ظهر إحدى السفن . وعندما كنت فى طريقى إلى محطة السكة الحديد لأركب القطار الذاهب إلى برمين تلقيت

برقية ففتحتها على الفور لأرى مضمونها قبل أن أركب القطار .
وقد كانت هذه البرقية قصيرة وحاسمة :

« إن الخديو يرجوك العودة إلى القاهرة على الفور » .

فأخذت أول قطار ذاهب إلى تريستا لأركب أول باخرة
ذاهبة إلى مصر . ولما كنت لم أقرأ أية صحيفة من الصحف منذ
أن غادرت جوتنجن فقد عجبت أشد العجب عند ما أخبرني
ربان السفينة التي ركبها إلى مصر أن آخر سفينة غادرت برمين
وهي التي كنت عازماً على ركوها لو كنت قد سافرت إلى برمين
قد حدث بها انفجار هائل قتل وجرح الكثيرين من ركاها .
فشكرت الله على أن دعوتى إلى الذهاب إلى مصر قد أنجتنى
من شر كنت معرضاً له من جراء هذا الانفجار .

ولما وصلت إلى القاهرة ذهبت على التو لمقابلة الخديو
إسماعيل حسب أوامره وكنت متوقفاً أن أتلقى منه بعض التوجيهات
الخاصة التي كان يجب أن يوجهها إلى نفسه ولكنني لم أسمع
منه إلا أنه سعيد أن يرانى سليماً معافياً وأنه ليس لديه ما يقوله
أكثر من ذلك .

لقد رأى الخديو أن يستدعيني عن طريق هذه البرقية
وذلك بسبب حلم رآه ذات ليلة جعله يطلبني على جناح السرعة

وإلا حل بي شر يتربص بي .

والواقع أن هناك كثيرين من الناس يرون الرؤى فتتحقق كما رؤوها في منامهم الأمر الذى دعى الكثير من الفلاسفة والمفكرين إلى تحليل هذه الظاهرة العجيبة والإفاضة في تفسيرها. ولم يكن حظ فلاسفة المسلمين من هذه المسألة بقليل بل إنهم أفاضوا الكلام في الرؤيا الصادقة وجعلوا هناك صلة قوية بين الرؤيا الصادقة والتنبؤ بالغيب استناداً على القول بأن الله يطلع عباده على غيبه سواء أكانوا في يقظة أم في منام : وهم يذهبون إلى أن الحلم إذا تحقق في الواقع كان هذا الحلم عبارة عن رؤيا صادقة ، أما إذا لم يتحقق فهو عبارة عن أضغاث أحلام ووسوسة شيطان لا تقبل تأويلاً ولا تستحق اهتماماً وهذا هو ما عليه أكثر المفكرين المسلمين .

وقد صنف الفلاسفة والمتكلمون الرؤيا على أصناف فقالوا إن بعضها ما يكون من وحى الله والبعض الآخر من إلهام الملائكة كما أن الرموز منها الذى يعوزه التعبير يكون من الملك أو من الأرواح فيما يقول البعض .

وقد جاء في الصحيحين عن النبي أنه قال :

« الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ورؤيا من الشيطان ورؤيا

ما يحدث المرء به نفسه فى اليقظة فيراه فى المنام .
 وقد عزى رجال الشرع الرؤيا الصادقة إلى الله القادر على
 كل شىء فهو يخلق فى قلب النائم أو فى حواسه الأشياء ،
 كما يخلقها فى اليقظة وهو سبحانه يفعل ما يشاء فلا يمنعه من
 ذلك نوم ولا غيره وربما يقع ذلك فى اليقظة كما يتراءى فى المنام .
 وذهب آخرون إلى أن الرؤيا الصادقة تقع للمرء وهو نائم
 ذاهل العقل والحس معاً ، إلا أن النائم وإن ذهب عقله الذى
 به يتعقل ويفهم وحسه الذى به يدرك صور المحسوسات فإن
 نفسه تكون يقظة منتبهة تقوى على التعقل والفهم وتقوم مقام
 الحواس من سمع وبصر ولس ونحوه فى نقل آثار الجزئيات .
 ذلك أن روح النائم تسرح فى الدنيا وتمتد منبسطة خارج الجسد
 وإن لبث جزء منها على اتصال به فتدرك فى النوم مكنونات
 الغيب المحجب .

وقيل إنها ترحل عن الجسد إلى عوالم الغيب فإن تيقظ النائم
 فجأة قبل أن تعود من رحلتها أدركه الجنون . وقيل بل تصعد
 الأرواح إلى السماء السابعة حتى تقف بين يدى الله ويأذن لها
 فى السجود . فإذا سجدت بشر الطاهر منها بالغيب فيراه
 النائم بروحه ويتفهمه بقلبه .

١٠٩

أما الصوفية فعندهم أن النفس من عالم المجردات والمعقولات فهي تستطيع أن تدرك المدركات التي من جنسها إذا لم يشغلها شاغل من علائق البدن فإذا قويت بالفضائل الروحية وضعف سلطان القوى البدنية اتصلت النفس بأبيها المقدس وبالنفوس الفلكية وتلقت عنها المغيات كما يقع لها هذا في يقظتها .
وفي الحديث النبوي : «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ولكن لا يشعرون» .

وهذا شاهد عدل على أن يقظة الوجود نوم ولكن الناس يحسبون وهماء أن المعرفة تقع إبان اليقظة ، مع أن المرء لا يعرف خلالها شيئاً من عالم الغيب وما يبصره بين النوم واليقظة أولاً بالمعرفة مما يدرك عن طريق الحواس . واللوح المحفوظ مرآة نقش عليها المقادير بغير حروف ولو ظهرت تجاهها مرآة أخرى لا تكشف فيها صور الأولى إلا إذا قام بينهما حجاب . وليست المرآة الثانية إلا القلب والحجاب هو الشهوات والحواس . ويتجلى هذا في اليقظة أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويزول وبذلك تظهر في مرآة القلب صور اللوح المحفوظ وتنكشف للنفس آفاق المجهول ، فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم في أعظم حالاتها زال العجب من وقوع العلم بالغيب إبانته ولكن الرؤيا

لا تقع لكل نائم ولا تجيء في كل نوم إنما تعرض للمؤمنين عن طريق الملائكة . فأما المؤمنون فإن نفوسهم قد صفت وتحررت من ضغط الأفكار الفاسدة وصدق الرؤيا يكون بمقدار ما يكون هذا الصفاء .

ويختلف الصوفية في تقدير الرؤيا فهم يضعوها دون الولاية حيناً وفي مرتبتها أحياناً فهي عند بعضهم نوع من الكرامات التي تقع للأولياء . والنفس التي تقوى على إدراكها متى عظمت وترقت في مجال الروحانيات أضحت صاحبها ولياً وهكذا يدرك في اليقظة متى قوى الأمر عنده — ما يدركه النائم في نومه ولئن كان هذا نادراً إلا أنه يقع لأهل الطريق ولا يشمل الناس جميعاً فإنهم يعجزون عن احتمال ملك الإلهام الذي يهبط على الأولياء أيقاظاً فيهبط على سائر البشر نياماً وإن جرت العادة فيما يرى البعض أن يسمى وحى الإلهام رؤيا إن وقع أثناء النوم وتخيلاً إن جاء إبان اليقظة .

ولعل ما ذكره ابن خلدون في هذا المقام يعد نموذجاً لهذا النوع من التفكير فقد ذكر في مقدمته :

« للعقل نطاق يحسن التفكير في مجاله ، إنه يدرك العلم الذي يستند إلى المشاهدة ، ويعتمد على التفكير النظري ،

هذه هي مدارك العلماء فإن تجاوز العقل هذا النطاق إلى ما وراءه
 ضل سبيلا . ووراء العقل نطاق يرتاد المرء مجاهله بنوع من
 الإدراك فوق مدارك البشر ، وهو يتوافر في الأنبياء وينتهي للأولياء
 ومع الناس نموذج منه يبتدىء فيما يقع لهم من صادق الأحلام
 وهم نيام . واهتداء النفوس إلى هذا العالم العلوي غير عسير
 لأن في النفس البشرية استعداداً للانسلاخ من البشرية
 إلى الملكية لتصير ملكاً بالفعل في لحظة من اللحظات
 وعندئذ تتجه إلى الملأ الأعلى وتتصل به فطرة لا اكتساباً .
 وبهذا تتجاوز مثل هذه النفوس مرتبة العلماء الذين يعجزون
 بطبعهم عن بلوغ الإدراك الروحاني لاتصالهم بالمدارك الحسية
 الخيالية التي تؤدي إلى اكتساب العلوم التصورية والتصديقية
 مما ينهى بالأوليات ولا يتجاوز نطاقها فإذا ترقى النفس
 تجاوزت هذا المجال واتجهت بالحركة الفكرية نحو العقل
 الروحاني والإدراك الذي لا يقتصر إلى إدراك الحس فيتسع
 نطاق إدراكها بالفطرة حتى يتجاوز الأوليات التي يقف عندها
 الإدراك البشري الأول إلى فضاء المشاهدات الباطنية وتلك هي
 مدارك الأولياء أصحاب العلوم اللدنية والمعارف الربانية ويظفر
 بها أهل السعادة في البرزخ بعد مماتهم . وقد ترقى النفس
 المفطورة على الانسلاخ من البشرية - جسمانياتها وروحانياتها -

إلى الملائكة من الأفق الأعلى لتصير في لحظة من اللحظات ملكاً بالفعل ، فتشهد أهل الملائة الأعلى في أفقهم وتستمع إلى الكلام النفسى والخطاب الإلهى في تلك اللحظة وتلك هي نفوس الأنبياء في حال الوحي التى فطروا عليها ولم يظفروا بها صناعة واكتساباً .

فالنفس ذات روحانية مدركة من غير آلات بدنية وأدوات حسية وتكون عندئذ أقل في الدرجة من نفوس الملائكة أهل الأفق العالى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن أو غيره . وهذا الاستعداد السالف يقوم في النفس ما دامت في البدن وهو على صنفين . صنف يتبهاً للأولياء وآخر عام في البشر جميعاً وهو الرؤيا الصادقة . أما الاستعداد الذى يتبهاً للأنبياء فإنه يكون بانسلاخ النفس من البشرية إلى الملكية المحضة وهى أعلى الروحانيات . «

ونجد مثل ذلك عند الغزالي فهو يصرح بأن الرؤيا طور ضعيف من أطوار النبوة وبينها وبين النبوة مرتبة واضحة المعالم يقوم فيها إلهام الأولياء الذى يعتبر ضعيفاً بالإضافة إلى الوحي النبوى قوياً بالقياس إلى وحي الرؤيا .

ويذهب الفلاسفة إلى أن الحواس تنقل للنفس صور

١١٣

المحسوسات فتتشغل النفس بالتفكير فيها إبان اليقظة ، فإذا وقع النوم تعطلت الحواس عن تأدية وظيفتها فتفرغ النفس من هذا التفكير وتنصرف إلى ما وراء الحس من جواهر روحانية شريفة عقلية وهي اللوح المحفوظ عند رجال الشرع - وفيها تنقش صور الموجودات كلها ، فإذا اتصلت النفس انطبعت فيها بما تحمل هذه الجواهر من مكنونات الغيب ولا سيما ما كان يعنى النفس منها .

وقد تصدق الصورة الجزئية التي تقع للنفس من غير حاجة إلى تعبير ، وربما بدلت الخيلة بها مثلاً يعوزه التعبير ليتكشف عن حقيقة معناه . وهم يقولون بأن من عناية الله بالإنسان أن يقع الإنذار في الرؤيا إذ المقصود به أن يستعد المرء للملاقاة المستقبل ويتهيأ لدفع شره ، هكذا أشار يوسف على ملك مصر بأن يستعد للسنين السبع المجذبة بعد أن رأى الملك في منامه سبع بقرات سمان تأكلهن سبع عجاف مهازيل وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات .

على أنه لا يبعد أن يقع الإنذار عن الماضي والحاضر متى كان مجهولاً لنا وهو أكثر ما يكون في الأمور المستقبلية التي يختص إدراكها بالقوى الفكرية الجزئية التي تفيد في

معرفة الضار والنافع من مقبل الأمور .

والخلاصة أن مفكرى الإسلام قد انتهوا إلى أن للنبيام
القدرة على الاتصال بالعقل الفعال متى قويت الخيلة عندهم
فإن أفرطت الخيلة فى قوتها تيسر لهم هذا الاتصال إبان اليقظة
وكان التنبؤ ويقع هذا للأنبياء والواصلين من الأولياء .

ومهما يكن من الأمر فهناك كثير من الناس ممن يوثق فى
صدق رواياتهم قد رأوا فى منامهم رؤى كثيرة تحققت فى العالم
المحسوس . وقد قيل إن أم الإمام الشافعى قد رأت فى منامها
بعد أن حملت به أن المشتري خرج من فرجها وانقض بمصر
ثم تفرق فى كل بلد قطعة . فقال المعبرون إن ابنها سيكون
عالمًا فذاً فى مصر ينشر علمه فى أكثر البلاد طولاً وعرضاً
فكان الأمر كما قالوا .

وذكروا أيضاً أن السيدة عائشة رأت سقوط ثلاثة أعمار
فى حجرها فعبر أبوها رؤياها بموته وموت الرسول والفاروق
عمر بن الخطاب ودفنهم فى حجرها جميعاً . وقد صح فيما
بعد هذا التعبير .

وقد فاخر الشعرانى — وهو من المتصوفة المشهورين —
بوقوع كثير من الرؤى له . من ذلك أنه كان وصياً على أبناء

أخيه فحرم عليهم مغادرة حجرتهم ، فرأى في تلك الليلة الشيخ أمين الدين يفتح لهم باباً في خلوته ليخرجوا منه فأدرك أنه أخطأ في أمره السالف وعدل عنه .

وكان إذا اغتاب أحد شخصاً بحضرته وساورته انشكوك فيما سمع رأى في ليله من اغتيب يلبس البياض فيدرك كذب المغتاب .

وقد روى الرحالة لين Lane في كتابه «عادات وشمائل المصريين

المحدثين» The Manners and Customs of modern Egyptians أن الإمام الشيخ المهدي قد قص عليه قصة خلاصتها أن أحد الأولياء عند العامة وهو الشيخ أحمد البهي - كان يحضر دروس الشيخ الأمير الكبير فسمعه يورخ حياة الحسين ويعقب قائلاً إن رأسه غير موجود بالمشهد الحسيني المعروف في القاهرة وكان البهي يعتقد غير ذلك فألمه ما سمع ولكنه لم يعترض على الشيخ احتراماً لشهرته وتقديراً لغزارة مادته . وعند انتهاء الدرس إنطلق إلى بيته وأقام الصلاة ودعا ربه - وهو جاث على ركبتيه - أن يرهبه رسول الله في رؤيا صادقة يعرف منها حقيقة هذه المسألة ، فلما استسلم للنوم رأى أنه في الطريق إلى زيارة المشهد الحسيني فلما دنا من قبته رأى النور يشع منها فدخل

المزار ، فرأى شريفاً طلب إليه — بعد تبادل التحية — أن يقرئ رسول الله السلام : فنظر إلى القبلة فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام جالساً على عرشه ، وقد وقف رجل عن يمينه وآخر عن يساره فجهر بقوله . السلام عليك يا رسول الله وكررها ثلاث مرات والدمع يجري على خديه : وسمع الرسول يقول له : أدن مني فقادته الشريف وأجلسه في حضرفته : فحياه الشيخ ورد الرسول تحيته ، وقال عوضك الله خيراً عن زيارتك يا بنى . فقال له : يا رسول الله ، هل رأس الحسين موجود هنا ؟ فأجاب الرسول بالإيجاب . فامتلا الرجل غبطة وطمأنينة واستأذن الرسول في أن يقص عليه ما قرره شيخه الأمير في درسه . فلما سمع الرسول قصته : طأطأ إلى الأرض رأسه ، ثم رفعه وقال إن الناقل مغفور له . فأحس الشيخ وكأن كيانه يهتر من فرط الرضا والغبطة فاستيقظ من نومه وانطلق مسرعاً إلى دار شيخه الأمير . فلما بلغ الباب دقه بعنف أفزع سكان البيت . ولما دخل الفناء أخذ ينادى شيخه بأعلا صوته فلما علم الشيخ بصاحب الصوت أدهشه مجيئه في هذا الوقت المبكر وظن سوءاً . وأخذ البهى من فرط التأثر يتحدث شيخه دون أن يقرئه السلام أو يقبل يده كما جرت عادته معه .

وقص رؤياه منبئاً شيخه بأن الشريف الذى كان بالبَاب هو الإمام على ، والواقف عن يمين الرسول هو أبو بكر . والواقف عن يساره عمر ، وأنهم كانوا فى زيارة الحسين . ولما دخل القبة قال : « السلام عليك يا ابن بنت رسول الله ، إني أومن بأن رأسك الكريم مدفون هنا ، ورؤيا البهى شاهدة على ذلك لأن رؤيا الرسول حق » .

هذا ولم يكن الاعتقاد فى الرؤى وفقاً على العرب أو المسلمين بل شاركهم فى هذا الاعتقاد كثير من الأمم القديمة . فقد كان الإغريق يرون أن الأحلام هى من فعل الإله زيوس كبير الآلهة . وقد ذكر هذا هوميروس فى إلياذته أكثر من مرة ، كما انتشر هذا الاعتقاد فى جميع بلاد الإغريق .

وكان للمصريين القدماء إله للأحلام هو « بس » Bess وقد نقشت صورته على كثير من الوسائد التى يضع المصريون عليها رؤوسهم . وكان للبابليين أيضاً إله الأحلام هو الإله « ماخر » وكذلك كان لمعظم الشعوب القديمة آلهة خاصة للأحلام على اعتبار أن هذه الآلهة هى الباعثة على ما يراه النائم من أحلام .

وكان الحكام فى إسبرطة ينامون عادة فى معبد خاص

اعتقاداً منهم أنهم يرون الرؤى الصادقة إذا ناموا في ذلك المعبد . وكان لهذه الرؤى أثرها المباشر في تسيير الأمور وتوجيه سياسة إسبرطة . وقد بلغ من اعتقاد أهل أثينا في الرؤى أن محكمتهم العليا كانت تأخذ بما تقرر الرؤيا من إدانة المتهمين أو تبرئهم كذلك كان أهل روما يستجيون لما تشير به الرؤى . وهكذا كانت الأحلام من الأمور التي شغلت بال الناس في مختلف الشعوب منذ القدم كما كان التسليم بالرؤيا الصادقة جزءاً من عقيدة أكثر المتعلمين والجهال على حد سواء حتى الوقت الحاضر .

وبما يتصل بهذا الموضوع إدراك المجانين والمصروعين للغيب وقد قالوا في تحليل ذلك أن نفوس المجانين ضعيفة التعلق بالبدن لفساد أمزجتهم في أغلب الأحوال ولضعف الروح الحيوانى فيها وبذلك تكون غير مستغرقة في الحواس ولا منصرفة إلى التفكير في نقصها ولذلك فالجنون يكون كالمبهوت الغافل عما يرى ويسمع ومثل هذا قد ينكشف له من الجواهر الروحانية شيء من الغيب فيجبرى على لسانه وهو فيما يشبه الذهول .

ومن هؤلاء أيضاً المرضى والمشرفين على الموت فقد يذكر المريض أنه يرى ويسمع أشياء ولا شيء من ذلك في واقع الحس وقد ردوا هذا إلى فعل الخيلة على اعتبار أنها مصدر الصور

الباطنة . وذكر الأطباء أن بعض المرضى يخبر بالغيب وبالأمر قبل وقوعها فيصدق قوله .

ويذكرون أن القتلى عند ما يشرفون على الموت يلقون أنباء تتصل بعالم الغيب . ويقال إن بعض الملوك الظلمة قد قتلوا بعض المساجين ليتعرفوا من كلامهم إبان قتلهم على ما خفي عليهم وقد أنبأهم هؤلاء بما يثير الدهشة .

والمعروف على سبيل التحقيق أن الموت متى نزل بالبدن ذهب الحس وزال حجابهِ واطلعت النفس على ذاتها وعالمها وبذلك تطلع النفس على عالم الغيب . وليس عجيباً أن يؤدي الموت إلى كشف الغيب فإن من يموت ، يتحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بعينه الظاهرة بل يرى بالعين التي خلقت في كل قلب وليس يمنع إبصارها إلا غشاء الشهوات . وبين القلب واللوح المحفوظ الذي نقش فيه كل ما قضى الله إلى يوم القيامة يقوم حجاب قد ينكشف في المنام أو اليقظة ولكن تمام ارتفاع هذا الحجاب إنما يكون بالموت كما يقول الغزالي في كتابه كيمياء السعادة .

الفصل السابع

موقف الفلاسفة من التنبؤ بالغيب

لقد سلم معظم الفلاسفة الأقدمين بالتنبؤ بالغيب وإن تفاوت تسليمهم قوة وضعفاً مع استثناء الفيلسوف اليوناني أكسانوفان فهو الوحيد الذى أنكر التكهن بخدافيره مع تسليمه بوجود الآلهة . فقد كان الفيلسوف سقراط يعتقد بأنه يعمل ويتكلم تحت تأثير إلهام إلهي . وكان على يقين من أن إلهاً خيراً يعين الناس حين يكونوا في شك من أمر المستقبل ، فالإنسان لا يستطيع بعقله وحده أن يعرف على وجه الدقة الاتجاه أو التصرف الذى يحسن التزامه . لذلك كان سقراط يؤنب الذين يعملون بغير ما تنذر به الآلهة ويحض أصدقاؤه على استشارة الوحي ولا سيما وحي دلفي . ومن هذا نرى أن سقراط كان يتشيع للتكهن أو يرى بتعبير أدق أن من واجب المرء أن يستشير الآلهة في الحالات الجدية الخطيرة أما في الأمور التى يستطيع المرء أن يحكم عليها حكماً مسبباً قائماً على العلل التى تبرره فإن سقراط يرى أن استشارة الوحي في مثل هذه الحالات أمر يخالف العقل .

أما أفلاطون فقد كان فن التكهّن عنده أجمل الفنون جميعاً وقد وردت في كتبه كثير من الفقرات التي تقرّر اعتقاده في التكهّن بالغيب . وكان من رأى أفلاطون أن القوانين الجميلة المقررة لا ينبغي الإقدام على تغييرها ، فإن كان من الضروري إجراء تغيير فيها وجب ألا يقدم المشرع على هذا إلا بعد أن يستشير جميع الحكام وكافة أفراد الشعب وكل أنواع الوحي حتى إذا وافقوا على التغيير جميعاً جاز الإقدام عليه . وقد ظفر التكهّن بالغيب بمكان مرموق في الدولة أيام أفلاطون وقد عرض لبيان هذا في كتبه النواميس والجمهوريّة والمائدة وطيماوس التي يعرض فيها نظرية التكهّن عن طريق الإلهام الإلهي مستخدماً لغة الصوفية في اشتراط هلوء النفس التام وتعطل الفكر بالنوم وصقله بالمرض أو بحالة الجذب التي تعترى الإنسان .

أما الفيلسوف أرسطو فكان يعتبر التكهّن بالغيب الذي يقوم على مشاهدة الشواهد الظاهرة وفن العيافة وملاحظة الطيور كلها غير خليقة باهتمام الفلاسفة . إن فلسفة أرسطو تستبعد بوجه عام كل ما فوق الطبيعة وإن كان يرى أن من الممكن أن نصل بشأن المستقبل إلى تخمينات وأن نبني آمالا ، ومن

هنا كان في الإمكان قيام علم للأمل الممكن وهو يريد أن يستبدل بالتكهن نوعاً من التنبؤ المعلل الذي يقوم على أسباب ويستند إلى الاستقراء وحساب الاحتمالات . أما عن التنبؤ في الأحلام فقد وضع عنه بحثاً قال فيه أنه لا يسهل علينا احتقار هذا النوع من التنبؤ ولا الاعتقاد في صحته . أما الرواقيون فقد تولوا الدفاع عن كافة ضروب التكهن بالغيب على وجه التقريب .

وكان فيثاغورس يميل إلى أن يعرف بين الناس بأنه من أهل العيافة . ويدل موقف ديمقريطس إزاء التكهن على إسرافه في الاهتمام بالصفة الآلية في مذهبه فليس ثمة شيء عنده إلا الجوهر الفرد والحلاء وكل ما هو موجود وكل ما يقع ينبغي أن يفسر باتصال الجواهر الفردة . وهذه الذرات لا تخضع لغير القوانين الآلية . وقد كان يرى وجود كائنات أعلى من الإنسان وأوفر منه حظاً في القدرة وأطول منه أجلاً تتألف من جواهر فردة إلا أنها جواهر لطيفة جداً تتحرك في الفضاء بسرعة خارقة . كانت تسمى في بعض الأحيان بالجن سواء أكانت خيرة أم شريرة . وكانت تلقي صوراً تراها أعين الناس وأصواتاً تصل إلى أذهانهم وبهذا يمكن تكشف المستقبل .

وإذا كانت حواسنا إبان النوم منصرفة عن إدراك الأشياء

١٢٣

المحيطة بنا فإن الأحلام تحمل أنباء المستقبل . وفي بعض الحالات يمكن لبعض الناس الذين يعترهم الجذب أن تنهياً لهم رؤى أو أصوات تفد عن كائنات أكمل منها تكويناً . وإن كانت هذه الصور التي تبعث بها الجن قد يشوبها تقلب الهواء وسقوط الأوراق مما يجعل النبوءات في فصل الحريف كثيرة الأخطاء .

أما الذى عليه رأى أكثر الفلاسفة المسلمين فهو أن الله وحده هو علام الغيوب ولكن ليس معنى استثائه بالغيب حرمان البشر كافة من القدرة على معرفة الغيب ، بل إن الله يهب لمن يشاء من عباده معرفة الغيب أو هى فطرة يجعلها فى صفوة المؤمنين ممن فطروا على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح . فالله تعالى وإن استأثر بعلم الغيب إلا أنه يهب رسله القدرة على إدراك بعض نواحيه فيكون إدراكهم من خصائص النبوة . وقد يصل بعض المؤمنين إلى مرتبة تدنو من مرتبة الأنبياء فينكشف عنهم الحجاب ويدركون شيئاً من علم الغيب . وهناك غير هؤلاء فئة ثالثة كان لهم من سلامة الفطرة أو معالجة النفس بأنواع الرياضة أو حلول مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد أو نحو ذلك فيدركون شيئاً من علم الغيب .

والسبب في هذه القدرة على إدراك الغيب تحرر النفس من
علائق البدن وانصراف المزاج عن موارد الحس فليس يمنع النفس
من تعقل المدارك الغيبية إلا انغماسها في البدن والحواس
فإذا ما تجردت من هذه المحسوسات تطلعت إلى الذوات التي
فوقها في الملاء الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من وجوه الاتصال
فتقتبس النفس منها علماً ومعرفة وعلى هذا جاز وقوع العلم
بالغيب لمن استطاعوا أن يزيلوا حجاب الحس في لحظة أو منام .

والقرآن الكريم قد حصر العلم بالغيب في الله وحده قال
تعالى : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو » وكرر هذا
المعنى في أكثر من آية ولكن الله يطلع على غيبه من يجتنبه
من رسله : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي
من رسله ما يشاء » . ويقول تعالى كذلك « عالم الغيب فلا يظهر
على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين
يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » .
ويتضح من هذه الآيات أن الله وحده هو العالم بالغيب
وأنه يجتبي من رسله من يطلعه على الغيب . ولكن أهل السنة
يرون أيضاً أنه في الإمكان إطلاع غير الرسل على الغيب
إطلائاً لا يفيد أكمل مراتب العلم أو قصر إطلاعهم على بعض

ميادين الغيب وبذلك فرقوا بين اطلاع الرسول واطلاع غيره من صفوة المؤمنين .

ولقد أفاض ابن خلدون في مقدمته الكلام عن المدرجات الغيبية ويعتبر كلامه أنموذجاً للتفكير الإسلامى فى هذه الناحية لذلك رأينا أن نختم هذا الكتاب بخلاصة ما ذكره ابن خلدون فى هذا الموضوع على النحو التالى .

« إننا نجد فى النوع الإنسانى أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس . ولا يرجعون فى ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها ، إنما نجد مداركهم فى ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين فى الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء ، والناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها ، وأهل الزجر فى الطير والسباع . وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وهذه كلها موجودة فى عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدتها ولا إنكارها وكذلك المجانين يلتقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها ، وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب ، وكذلك أهل الرياضيات من المتصوفة لهم مدارك فى الغيب على

سبيل الكرامة معروفة . فالنفس الإنسانية ذات روحانية موجودة بالقوة بين سائر الروحانيات وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله وهذا أمر مدرك لكل أحد ، وكل ما بالقوة فله مادة وصورة ، وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل فهي توجد أولاً بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بوجود مدركاتها المحسوسة عليها ، وما تنتزع من تلك الإدراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصورة مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل طوراً بالفعل فتم ذاتها وتبقى النفس كالهَيُولاء والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة . ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الإدراك التي لها من ذاتها لابتنوم ولا بكشف ولا بغيرها وذلك لأن صورتها التي هي عين ذاتها وهي الإدراك والتعقل لم يتم بعد ، بل لم يتم لها انتزاع الكليات ، ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك : إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية وإدراك بذاتها من غير واسطة ، وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وبشواغلها لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت

عليه أولاً من الإدراك الجسماني ، وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التي للإنسان على الإطلاق. مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق ، أو بالرياضة مثل الصوفية ، فتلتفت حينئذ إلى النوات التي فوقها من الملاء الأعلى لما بين أقدفها وأقدفهم من الاتصال في الوجود ، وتلك النوات روحانية وهي إدراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوماً ، وربما رفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ، ثم يراجع الحس ما أدركت إما مجرداً أو في قوالبه فتخبر به . وهذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك العبي .

ولبيان أصنافه نقول إن الناظرين في الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان إلا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل خلقهم لأن الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس إلى كثير معاناه ، وهؤلاء يعانونه بالانحصار الممارك الحسية كلها في نوع واحد منها ، وأشرفها البصر فيعكف على المرئي البسيط حتى يبلوله مدركة الذي يخبر به عنه . وربما

يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو في سطح المرأة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون في سطح المرأة إلى أن يغيب عن البصر .
ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرأة حجاب كأنه غمام يتدش فيه صور هي مداركهم فيشرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفي أو إثبات فيخبرون بذلك على نحو ما .
أما المرأة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال وإنما ينشأ لهم بها من هذا النوع الآخر من الإدراك وهو نفساني ليس من إدراك البصر بل يتشكل به المدرك النفساني للحس .
ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين في الماء والطساس وأمثال ذلك . وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد . ثم يخبر كما أدرك ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة في الهواء تحكى لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثال والإشارة .
وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأولين .

أما العرافون منهم المتعلقون بهذا الإدراك ، وليس الاتصال — فيسلطون الفكر على الأمر الذي يتوجهون إليه عندئذ فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة .

دار المعارف للطباعة والنشر

شفيق نجيب مئرى وشركاه

المركز الرئىسى : ه شارع ماسيرو بالقاهرة

يسرها أن تعلن إلى عملها وأصدقائها الكرام وسائر القراء أنها قد عادت إلى القيام بتوزيع وبيع جميع مطبوعاتها بمقرها وذلك فى الجمهورية العربية المتحدة وفى سائر الأقطار .

وعليه يمكن الحصول على كافة المطبوعات مدرسية كانت أم ثقافية من كل الأماكن والجهات الآتية :

١ - المركز الرئىسى : ه شارع ماسيرو بالقاهرة تليفون ٨١٢١٦٨

٢ - قسم التوريدات : ٩ شارع كامل صدق بالفجالة ٤٩٨٦٦

٣ - من فروعها الآتية :

فروعها بالفجالة : ٩ شارع كامل صدق بالقاهرة ٤٩٨٦٦

» بشبرا : ١٠٥ شارع شبرا بالقاهرة

» بالسيدة : ميدان السيدة زينب بالقاهرة

» بالظاهر : شارع الجميل بالظاهر بالقاهرة

» بالإسكندرية : ٢ ميدان التحرير بالإسكندرية

Bibliotheca Alexandrina



0207232